

ما لم تقله النساء



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي، في إطار المشروع الحضاري العربي المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز إلى تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة في ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات بيتها مركز الحضارة العربية.

رئيس المركز

على عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين - عمارات الأوقاف

مهدان الصحب ككات - القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

محمد القصبي

ما لم تقله النساء

رواية



الكتاب: ما لم تقله النساء
رواية

المؤلف: محمد القصبي

الناشر: مركز الحضارة العربية

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٢

الغلاف إهداء من الفنان الكبير أحمد عبد النعيم

الجمع والصف الإلكتروني: وحدة الحاسوب بالمركز

تصميم وجرافيك: محمد الفهمي

011 11 83 503

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٢١٩٣٤

التسجيل الدولي: 9-106-694-779-879

القصبي، محمد.

ما لم تقله النساء: رواية/ محمد القصبي. ط١.

- الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر

والدراسات، ٢٠١٢.

١٧٦ ص؛ ٢١ سم.

تدسك: ٩-١٠٦-٤٩٦-٩٧٧-٩٧٨

١_ القصص العربية.

١_ العنوان

إهداء

إلى أشقائي..

ماهر

عبد العاطي

هاني

ميمي

إلى شقيقتي..

عفاف وسعاد

عالمي المفعم بالحب ..

بالخير .. بالسلام ..

أستاذي د/ سامي الجبالي

مع آخر كلمة سطررتها في رسالتي هذه.. أراني مدفوعة للعودة إلى البدء
لأدمي ورقتها الأولى بنزف انشطاري بين رغبتين حادثين ..
أن أمزق أوراقك تلك وتظل صرختي حبيسة مخدعي ..
أو..

أن أرسلها لك وحدك لتمزقها بعد قراءتك لها ..

لكن رغبة ثالثة تراودني.. أن تطير أوراقك عبر كل الأسيجة لتمطر
الرجال بحقيقتي.. لكنها رغبة ما زالت في بدء تكورها برحم أحلامي ..
وأمامها أجيال وأجيال حتى تتحول إلى كائن مكتمل جدير بالانبثاق .. فلا
الفلاحون في قريتي بوسط الدلتا ولا ركاب المترو في عاصمة بلادي .. ولا
حتى مثقفو الأتيليه وقهوة ريش في القاهرة.. لا أحد مهياً بعد للإنصات إلى
صراخي ..

أرجوك .. مزق أوراقك تلك .. بعد أن تفرغ من قراءتك لها.. إن غلبتني
الرغبة الثانية وأرسلتها لك ..

د. زينب الحناوي

من أين أبدأ ..؟

وما أكثر البدايات التي تتقاذز داخلي .. تتصارع .. كل ترغب في أن تكون السطور التي استهل بها اعترافاتي تلك .. وأراني أكثر تعاطفا مع تلك الليلة التي تسحق فيها تقاسيم وجه أبي ما بين الخوف والرجاء .. لم أره .. لكنه هكذا كان .. كما حكوا لي ..

ليلة ممطرة .. جدران الغرفة الطينية تصمد بأعجوبة أمام شلالات المطر المنهمر منذ يومين فلم تهو فوق رأس أمي التي فاجأها وجع الطلق .. وكلما نقلوا السرير النحاسي إلى ركن لاتصل إليه سراسيب المياه التي تنزل من شقوق السقف الخشبي رغم أكوام القش والحطب التي ترتفع فوقه لأكثر من مترين .. سرعان ما ينبثق السقف عن سرسوب جديد ..

وكثيراً ما يحكي عدلي مازحاً :

– كانت ليلة سودة .. لاعارفين نتلم على شوية حطب ناشفين نولعهم عشان أمك المسكينة تدفى .. ولا كان في الدار قلويحة واحدة .. والسما المخرومة مش راضية تبطل نزل .. ومع كده أبويا رضوان راسه وألف سيف إنى أروح عزية البيضة .. قلنا له أم حسن كويسة .. يزعق :

– أم حسن لأ .. كفاية مصايها الثلاثة ..!

ومصائبها الثلاث خديجة وأم كلثوم وفاطمة .. شقيقتي اللائي قدر لي في اللوح المحفوظ أن ألحق بهن في تلك الليلة العاصفة التي لم تفلح رعودها في صعق حلم أبي ..

– محفوفة بنت أبو جحش .. بيقولوا كل خلفتها ذكور ..!

– .. طب نجيبها إزاي دلوقتي يابا رضوان؟

– يا عدلي بطل مناحية فيه وخذ ابور العرت بتاعكم .. وروح هات

الولية

بدأ حديث أبي كأنه أمر لا يخلو من التوسل، انصاع له عدلي.. لكنه ألقى آخر ما بداخله من سلاح قد يدفع أبي إلى التراجع ..

– وهي ممكن توافق أن تيجي في ليلة زي دي !..

– هتيجي إن شاء الله .. وقل لها حلاوتك كبيرة قوي من الشيخ رضوان الحناوي .. لو حصل المراد ..

متلملاً اعتلى عدلي وابور الحرت .. وبدأ ينزلق على المشاية الموحلة والتي بدت كصراط رفيع مُد فوق ترعة تتفرج يميناً ويساراً وأمام حجبتة الأمطار .. يحبو الوابور فوق المشاية بحذر كطفل في خطوه الأولى .. لكن الحذر لم يحل دون أن تنزلق عجالاته من حافة المشاية إلى الترعة .

ويصر دوماً على أن يحكي ذات القصة كلما التففنا حول رابية النار في غرفة نوم أبي وأمي في ليالي الشتاء البعيدة أو فوق أكوام القش على سطح منزلنا في عصاري الصيف ..

– وابور الحرت لما حدف ناحية الترعة.. نزلت وفكرت أرجع ثاني .. بس أنا خفت من عمي رضوان .. كان هيسود عيشتي لو رجعت له من غير محفوظة الداية .. سحبت العباية السوداء فوق رأسي ووشى وماعدش باين من جسمي غير العينين إللي بيعافروا علشان يلاقوا سكة لرجلي وسط متر الوحل إللي مغطي المشاية ... محفوظة استقلت الظروف.. قالتلي على طول: آخذ خمسة جنيه!

– يا نهار اسود يا خالة محفوظة .. خمسة جنيه بحالهم .. ليه إنت هتتزلي عبود باشا من بطن عمتي ..؟

– وتشوف لي ركوبة .. ولا عاوزني آخذها مشي ..؟

– طب أجيبك ركوبة منين دلوقتي إذا الوابور سايبه مايل على جانبه والعجلة القدمانية حذفت على الترعة عند شجر أبو بالال..وعاوز

وابور معافي يشده ..

_ هجيبك الوابور المعافي بس هاخذ خمسة جنيه ..

_ دا أجعص جعيمص في المعصرة اتسحب من بطن أمه بعشرين بيضة ..
ويكثيره جنيه..!

ولما لاقتها مصررة على كلامها قتلها:

_ ماشي .. بس هتجيبني الوابور منين ؟.. ماردتش علي ونادت على ابنها ..
وطلبت منه يروح يخبط على سعد النجولي ويجيب الوابور بتاعه ..

_ سعد النجولي هيفتح لحد في الليلة السوداء دي..!

برضه ماردتش علي .. دخلت توضب نفسها وبعد شوية سمعت صوت
الوابور .. معقولة ..! طلعت أشوف إذا كان هو الوابور أو واپور حد ثاني
.. ما هو مش معقول سعد النجولي كبير أعيان العزبة يستجيب لمحفوفة
الداية كده بسهولة .. ابنها الظاهر لاقاني مستغرب فشرح لي الحكاية:
سعد النجولي قعد متجوز ١٨ سنة وما فيش خلفه .. ويعدين ربنا كرمه
ومراته حبلى .. الراجل كان هيموت من الفرح .. بس كان قلقان .. نفسه
في ذكر .. وخايف إن تيجي بنت .. عنده ٤٨ فدان ومراته عندها ٤٥ ..
الدكاترة قالوله إن حبل مراته صعب .. وممكن ما تحبلش بعد كده ..
طيب .. إذا كانت هتحبل مرة واحدة يبقى في ولد يورث الطين دا كله
لوحد .. وما حدش يشاركه فيه من اعمامه وأولاد أعمامه .. أصله كمان
ما يقدرش يتجوز واحدة ثانية .. مراته كانت شديدة عليه .. قالوله الذكر
مش هيجي على أيدين الحكماء .. إنما على أيدين محفوفة .. وفعلاً الذكر
جه .. الراجل ما كانش طابق الفرحة .. قال لها: يا محفوفة والله لو ينفع
أسمي الولد على اسمك لأسميته ..! بس أنا هفضل طول عمري مديون لك
بالجميل ده وبيتي مفتوح لك ولأولادك طول العمر ..

لكن محفوفة التي لم تخيب رجاء سعد النجولي في الذكر خيبت
رجاء أبي وألقت في وجهه بالمصيبة الرابعة ..! أنا ..!

هل كنت أسعى وأنا أنبثق من بين فخذي أمي وما أكملت بداخلها شهري السابع نحو عالم أكثر اتساعاً وحرية من زنزانة رحمها ..؟ لكن استقبال أبي ما كان ينم على أنني سأكون بالعضو المرغوب فيه داخل أسرته ..! انفلت من رحم أمي الضيق إلى عالم أبي الأكثر ضيقاً .. ولم تنفج أساريره ارتياحاً حين نعتني الداية مواسية وأنا بين يديها قطعة لحم هامة .. مقطوعة النفس .. منقوصة الوزن ..:

– الحمد لله أنها بنت!!

لكن الشيخ عبادة صلاح خطيب مسجد المعصراوي وضمير أبي الديني نهره في حدة:

– إياك أن تتمنى لها الموت يا رضوان يا حناوي .. مجرد الأمنية تصبح من أهل النار .. مع إللي كانوا يبئدوا بناتهم في الجاهلية خشية إملاق..! نفى أبي عنه التهمة بشدة قائلاً:

– أعوذ بالله ياشيخ عبادة إن فكرت بالطريقة دي .. لكن..

– نفسك في الذكر ..! عارف .. وعارف كمان يعني إيه تكون خليفة الواحد منا بنات .. مش ده حالي برضه ..؟ وزى ما إنت شايف. اتجوزت بتانية وتالته .. تلاثة جابوللي تمن بنات .. وكثير ما فكرت في الرابعة .. لكن إعالة ١٢ بطن مش في استطاعتي .. ماقدرتش أجرب حظي مع الرابعة .. وما أخبيش عليك .. قلبي بيتقطع لما بشوف الشيخ عبد الرافع مأذون البلد صاحب ابنه معاه في كل فرح .. عاوز يشربه المهنة .. عشان ما حدش غريب ياخدها .. وأنت شايف الأولاد الأزهرية بيخرجمو على الجامع .. نفسهم أموت عشان ينطوا على المنبر إللي بنيته طوية طوية .. ومع ذلك إوعى تفهم إن أنا بكره بناتي .. دا أنا ما بعرفش أنام إلا لما أشوفهم وأطمئن عليهم .. ويعدين .. بإيدنا إيه نعمله ..! ما دامت دي إرادة الله إللي نقذت حتى على أشرف الخلق .. محمد بن عبد الله ..

لكنني كما ترى أستاذي لم أمت .. الداية نصحت أبي بأن أوضع في قفة صغيرة .. وأوزن مقابل قفة أخرى مليئة بروت البهائم الجافة .. فنجوت..! "هل تبدو فاء العطف هنا في موقعها الصحيح من الجملة..؟" أهل القرية في ذلك الزمن قالوا: نعم .. إلا الشيخ عبادة صلاح قال: لا.. هذه خزعلات .. وما نجت زينب بنت رضوان الحناوي إلا؛ لأن تلك مشيئة الله .. أن تكون موجودة ..!

فهل أنا بالفعل موجودة؟ رغم تراث أبي والشيخ عبادة صلاح الذي يرسخ في قراري العميق؛ إلا أنني في أحيان كثيرة تورقني فكرة أنني.. أننا جميعاً لا وجود حقيقياً لنا .. ربما بكثيريا فضلات كائنات أخرى عملاقة في أكوان أو أبعاد لا علم لنا بها .. إلا أنني سريعاً ما أتخلص من هذه الفكرة .. مؤكدة أنني بالفعل موجودة .. حضوراً إنسانياً ناقداً.. طالما أنا مؤرقة بهاجس آخر .. لا أدري إن كان انبثاقاً نورانياً لرأس تفكر أم زفير شيطان يسكنني .. فلا أراني سوى مجرد تضييعة جبل مشدود من القلق بين .. ربما .. عديمين .. وسريعاً أيضاً أهز رأسي بعنف .. بلوم ربما .. وأطل على دواخلي المكتظة بالميراث الذي خلفه لي أبي فأستعيد بالله من الشيطان الرجيم .. وأهرع إلى الحمام لأتوضأ وأصلي وأستغيث بالعلي القدير أن ينقذني من وساوسي ..

ومنذ عدة شهور اشتعلت الرأس بوساوسها .. ليلة أمضيتها أعد بحثاً عن الروائيين الجدد في إسرائيل .. "أمير غوتفرون" صاحب رواية "العالم في وقت متأخر قليلاً" والتي كانت أكثر الروايات مبيعاً خلال السنوات الأخيرة و"يوخل براندس" و"نوا زيت" و"هدارة لزار" والشاعرة والروائية "غابريلا أفينفور - روتم" والروائي والمسرحي "ألون حيلو" والتي حازت روايته "موت راهب" على عدة جوائز وترجمت إلى أكثر من لغة..

.. وأظن أن تلك كانت نصيحتك لي منذ فترة أن ألتفت إلى ما يكتبه هؤلاء .. قلت لي إن كتاباتهم توابع خطيرة لزلزال المؤرخين الجدد في إسرائيل

.. وكان من الطبيعي أن أعود للزلال الأم .. حفريات وأبحاث وكتابات المؤرخين الجدد .. تلك التي يستمد منها الروائيون الجدد في إسرائيل المواد الخام لسردهم الروائي .. وهالني ما انتهى إليهم .. وهالني أكثر احتفاء كتابنا و صحفينا بنتائج أبحاثهم .. لأنهم رأوا فيها تقويضاً للدعوى التاريخية التي اتكأ عليها آباء الصهيونية الأوائل في تأسيس الدولة اليهودية .. ولم ينتبهوا أنها تقوض أيضاً .. إسلامنا .. ماذا نفهم من قصة الملك سليمان التي وردت في القرآن الكريم ؟.. إنه ملك عظيم .. ذو ملك عظيم ..! هذا ما رسخ في قرارنا منذ أربعة عشر قرناً .. لكن المؤرخين الجدد .. ينتهون إلى نفس .. ليس فقط تاريخ إسرائيل القديمة .. بل أخشى الحقائق الأهم في دواخلنا .. ولا أظن أنه يغيب عن مثقف موسوعي مثلك ما انتهى إليه مثلاً البروفيسور الإسرائيلي (زئيف هرتزوج) الذي قال نصاً:

" إن التنقيبات الأثرية المكثفة في أرض إسرائيل خلال القرن الماضي _ العشرين _ قد أوصلتنا إلى نتائج محبطة .. فكل شيء مختلف .. لم نعث على شيء يتفق والرواية التوراتية .. إن قصص الآباء _ إبراهيم _ يعقوب _ إسحق _ في سفر التكوين هي مجرد أساطير .. نحن لم نهبط إلى مصر ولم نخرج بالتالي منها .. لم نته في صحراء سيناء .. لم ندخل فلسطين بحملة عسكرية واجتياح .. إن مملكة داود وسليمان التي توصف في التوراة بأنها دولة عظمى كانت في أفضل أحوالها مملكة قبلية صغيرة.

ويزيد هرتزوج :

" إنني أدرك باعتباري واحداً من أبناء الشعب اليهودي وتلميذاً للمدرسة التوراتية مدى الإحباط الناجم عن الهوة بين آمالنا في إثبات تاريخية التوراة ، وبين الحقائق الأثرية التي تتكشف على أرض الواقع "

ولاينأى زميله الباحث الإسرائيلي (مازار) حين يقول:

" ليس ثمة بنى معمارية وعمرانية ضخمة أو منشآت مهمة يمكن أن نصفها بكل ثقة بالداوودية .. إن البقايا المادية في أرض إسرائيل فقيرة

ومتواضعة إلى حد كبير.. خصوصاً إذا جرى مقارنتها بما أنتجته الحضارات الكنعانية والبابلية والآرامية والمصرية ."

وها هو الباحث الإسرائيلي (أوسيشكن) يذرف دموع الألم بعد أن داهمته الحقائق الموجهة: " إنه ليصعب على روجي الرومانسية أن تقبل بهذه الوقائع .. الوقائع التوراتية لرؤية مملكة داود وسليمان .. أرجو من الملك سليمان أن يسامحني!!

إنها ذات النتائج التي تنتهي إليها حفريات زميليه (أمون بن تور) و(نادف) اللذين قالوا: إن مملكة سليمان ليست أكثر من مشيخة صغيرة ."

أظنها كانت الليلة الأشد شراسة في حياتي .. حيث تقافزت في دواخلي وساوس قديمة .. سبق وأن طرحتها عليك هامة: إذا كان أجدادنا الفراعنة لم يتركوا صغيرة أو كبيرة من تاريخهم إلا ووثقوها على جدران المعابد .. فكيف يحدث هائل مثل هروب اليهود من مصر ومطاردة فرعون لهم لينشق البحر فينجون ويغرق هو وقومه .. كيف يحدث مثل هذا أن يسقط من ذاكرة أجدادنا ..؟ يومها لم تجب، واكتفيت بالتطلع إلي في صمت فسرت به أنك تشاركني حيرتي .. أو بمعنى أدق وساوسي التي فررت منها سريعاً وأنا أصبح في وجهك .. بل في وجه وساوسي: طالما أنها وردت في القرآن الكريم فعليتنا أن نؤمن بها يقينا لا يهتز ..! هل كان صراخي ..؟ أم صراخ الشيخ رضوان الحناوي .. أبي الذي لم يمت أبداً بداخلي ..؟

ليلتها كابدت لأنجو من المؤرخين الجدد وساوسي القديمة .. ألقيت بكتبي وكتاباتي في الأدراج .. وتوضأت لأصلي .. وما وجدت في نفسي القدرة على أن أدعو بالتوبة .. لأن بداخلي خضية .. ربما يقينا .. أن شكوكي لن تبرحني أبداً .. بل أنني استمتع أحياناً بعريبتها .. لم أجرؤ على أن أهتف: اللهم تب علي من وساوسي ..! واكتفيت بدعاء رأيت ملائماً لحالتي: اللهم عمر قلبي بنور الإيمان!

وعقب الصلاة توجهت إلى فراشي .. انسلخت عن الدكتوراة زينب رضوان

وهتفت فيها موبخة: ما هو مش ممكن خلق الكون ده كله صدفة .. لازم يكون وراه حد .. وطالما فيه حد .. لازم بيبلغنا بوجوده .. ويقول هو عاوز آيه منا ..! لم يكن صياحاً .. بل صراخاً موجعاً .. وأحمد الله أن " هشام " خرج ليؤدي صلاة الفجر كعادته في مسجد السنين .. ولو كان موجوداً وسمع أنين أوجاعي وحتى مكابدي لأسحق وساوسي فلن يتراجع عن الصراخ في وجهي: كافرة .. زنديقة .. أنت طالق .. بالتلاتة ..! فهل استجاب ربي لدعائي بأن يعمر قلبي بنور الإيمان ..! ربما ما زالت عالقة بذاكرتك تلك الظهيرة التي شهدت فيها الكلية جدلاً مثيراً خلال ندوة " العولمة والأديان " .. وذلك النقاش الذي تفجر على مائدة الغداء .. حين انتقد الدكتور (يوسف الزاهي) أستاذ الفلسفة اليونانية عنوان الندوة قائلاً: كيف نتحدث عن شيء لاوجود له؟ لم يكن يقصد العولمة .. بل الأديان التي وصفها بالوهم الأعظم الذي اخترعته السلطة ليعينها على البقاء .. ما لم يتمكن من الجهر به على منصة الندوة خوفاً من طلاب الجماعات الإسلامية باح لنا به على مائدة الطعام .. وردد ما يردده الملاحدة منذ مئتي عام: لا إله ولا رسالات ولا أنبياء .. وما جئنا إلا نتيجة صدفة..! لحظتها قلت: إذن علينا أن نسجد شاكرين خاشعين .. للصدفة!.. كونها مسئولة عن هذا الوجود الهائل .. فهي جديرة بأن تكون إلهاً..! كان منبع كلماتي السخرية مما يقول الزاهي .. لكن هل كلماتي لحظتها دليل على أن الله عمر قلبي بنور الإيمان ..! أم أن ما قلته يومها ومناقشاتني مع الطلاب وهشام وصلاتي وصومي وزكاتي ليس سوى تزلف لمن حولي أو خشية منهم .. في الوقت الذي تعريد الحيرة والشكوك تحت الجلد ..!

أستاذي .. القلم يرتجف بين أناملتي .. وأخشى أن تنفد طاقتي من شجاعة المواجهة قبل أن أنهي رسالتي؟

مثلك قريب مني يقينا سيفاجئك كلامي هذا والذي ينسف خرائط الدكتورة زينب الحناوي السابقة بداخلك .. وربما تتساءل: فلماذا أنت الذي

اختصك بهذا..؟ لا أعني هذا الذي سطرته أعلامه عن شكوكي .. فهما قلت سابقاً ليس سوى مجرد نزعي لقفاضات يدي .. هواجس تجاه الخالق والمخلوق ..! نعم.. أمر يُصيب القبيلة بشيء من الاستهجان .. بيننا امرأة تفكر وتتمادى في تفكيرها إلى حد اقضاء الله عن الوجود! لكن هذا يبدو هيناً أمام الآتي .. حين ترى عبر سطور التالفة جسد الدكتورة زينب الحناوي .. أستاذة النقد الأدبي بجامعة المنصورة وزوجة الشيخ السني هشام الغزولي رئيس جماعة أحياء الرسول السلفية .. يتعري أمامك تماماً .. حتى من ورقة التوت ..؟

هل تتذكر .. في مقالتك التي كتبتها عن كتابي النقدي " الرواية النسوية عبر نصف قرن " قلت هذا: إن كتابات الدكتورة زينب العناوي النقدية هي في الحقيقة إبداع مواز للعمل الإبداعي الذي تضعه تحت مجهرها النقدي .. بل يملكني إحساس بأنها حين تخوض في تفاصيل حرب الإدلال التي يمارسها الذكر ضد المرأة إنما تكتب حالتها الخاصة جداً .. وليس عن بطلات الروايات النسوية السبع التي تناولتها في كتابها الأخير .. ولا أفرط في المبالغة إن قلت أن لفتها العذبة .. المعذبة .. تطيق كل ما بداخلها من أسرار الأنثى عبر آلاف السنين .. لكنها ترضن عليها إلا بالقشور من هذه الأسرار المخبوءة في أدراجها السرية للغاية .. وأتساءل مع كل سطر أقرأه: تلك اللغة المخملية لماذا لا تفيض بها الدكتورة زينب على قرائها شعراً أو قصاً ..؟

أخذت بنصيحتك .. وكتبت منذ عامين ست قصص قصيرة .. وربما قد تتساءل الآن لماذا لم أدفع بها إلى أي من صحفنا أو دورياتنا الأدبية لنشرها ..؟ لقد شعرت حين أعدت قراءتها بأنني أقول ما يناقض المخبوء تحت الضلوع في صندوق الخاص جداً ..! وكثيراً ما تساءلت: أهو الجبن ..؟ وأجيبك الآن: ربما .. وبقينا غباء زوجي هشام ..!.. وقد يكون الأمر غير هذا وذاك .. إنه عالمي الذي يستعصي على أي بصيرة .. على أي إدراك .. حتى إدراكي أنا .. وأظن أن عبارته بدت منقوصة .. (ألبرت أينشتاين) أعني .. حين قال: شيئان لا نهاية لهما .. الكون والغباء ..! ليته كان حياً لأستأذنه في إضافة .. وأنا ..!.. بذلك تكتمل العبارة .. وأظنه كان عالماً ناجحاً لأنه أدرك أن الكون لا نهائي .. وكان إنساناً ذكياً لأنه أدرك أن الغباء لا نهائي .. لكنه كان زوجاً فاشلاً؛ لأنه لم يدرك أن " ميلغا ماريك " التي جاورتها على مقاعد الدراسة في المعهد الاتحادي السويسري للثقافة وأحبها لأكثر من خمس سنوات قبل أن يتزوجها كانت مثل الكون والغباء

لا نهائية .. لذا طلقها ..! في واحدة من قصصي القصيرة الست .. عنوانها "رجل ما" .. وردت تلك العبارة على لسان البطلّة: في ليلة الدخلة رسمت لوجهه ملامح أخرى أمضيت عمري أتوق إليها غير ملامحه .. " .. ماذا لو قرأ هشام تلك العبارة ..؟ ستسوقه وساوسه إلى ليلة دخلتنا ليغزل من تفاصيلها صحيفة اتهام لي بأن ما كتبت في تلك القصة إلا عن نفسي .. مدعماً اتهامه بالحاحي المستمر عبر سنوات زواجنا بأن يزيل لحيته التي تخصم من جماله الرجولي ولا تضيف إليه كما يظن ..! لا أدري كلما لفحتني عبارة أينشتين أشعر بأن ما يعنيه بالكون اللانهائي أنا .. والغباء اللانهائي هشام .. وربما مثل هشام لو رددت العبارة على مسامعه لقدم تفسيراً معكوساً ..!!

والآن .. وأنا في مخبأي السري .. بإحدى عمارات المنصورة القديمة أشعر أن شقتي الصغيرة تلك المختبأة في الطابق الرابع بالوجهة الخلفية للعمارة وتختلس النظر بقلق .. على العالم الخارجي عبر أربع نوافذ صغيرة .. اثنتين على المنور الصغير والأخريين على ممر جانبي ضيق .. شقتي الصغيرة المخنوقة تلك أشعر أنها أكثر اتساعاً من منزل هشام الرحب .. وربما هي باتساع الكون بفضل نسائم الحرية التي تهب علي من نوافذها الصغيرة .. ومن نسائم الحرية أعبيء قلبي بأسرار طفولتي .. أنوثتي .. أحلامي الملائكية بدءاً التي اصطدمت بواقع آدميتي لتتهار .. أسراري تلك أفضي بها إليك وحدك .. وما أتاحت من قبل وعبر آلاف السنين لرجل سواك ..

ولماذا أنت ..؟ لا أظن أن السبب يرجع إلى أن المعيد الوسيم سامي الجبالي كان يحيط الطالبة زينب الحناوي بقدر من الخصوصية في التعامل ، لم تتعم به غيرها .. ولا لأنه ساعدها في رسالتي الماجستير والدكتوراه وفتح أمامها صفحات المجالات والجرائد لتكتب .. بل ثمة سبب آخر أكثر أهمية .. أن عمراً آخر خفياً عن أعين الناس .. بل حتى عن عينيك أنت .. احتشد بالآلاف الليالي الأرقّة التي وحدتنا .. لهذا أستاذي أخصك بأوراقك تلك .. لكن رجائي .. ألا تضع سطورتي تحت أي مجهر نقدي .. أو تبندوها

تحت أي من أجناسنا الأدبية .. فإن بدت في بعض السطور سلسلة .. قابلة للتبنيذ .. ففي سطور تالية ستواجه بحالة من التمرد .. من العصيان .. على كل ما هو مألوف لك من أجناس ومدارس .. ربما لأن هذا ما كان مقصدي .. أن أكتب شيئاً تخضعه لموازينك النقدية كما كان الحال في الماضي لتنتهي بتفريط ما كتبت عبر مقالة تشرها هنا أو هناك .. أوراقك تلك ليست كتابة .. وربما ليست كهذا الذي انتهى إليه (رولان بارت) بعد أن أمضى وقتاً طويلاً تهشبه الحيرة إزاء كتابات (جورج باتاي) : هل بيند ما يكتب في جنس السرد القصصي .. أم الشعر أم أنه كاتب مقالة ؟ هل هو رجل اقتصاد أم فيلسوف أم متصوف ؟ .. وأخيراً استقر بارت على أن باتاي يكتب نصاً ..!

ولا أريدك أن تنتهي إلى ما انتهى إليه بارت .. قضيتي ليست تصنيفاً أدبياً .. بل .. بل .. أعذرني إن قلت هذا .. أول أمس شعرت بحالة غثيان حادة .. تقيأت .. شعرت بعدها بالارتياح .. وعذراً أيضاً أن تبعثر تركيزك في متاهات أفكارك .. لكنني أعدك بأنني سأحاول من جانبي ألا أشرد كثيراً .. وإن كان الأمر يبدو عصياً في حالتي تلك ..

و .. دعني أعود ثانية إلى البدايات .. هل قلت إن أبي أتى بمحفوظة الداية في تلك الليلة المستعصية على أي نشاط إنساني لجذبي من بين فخذي أمي ذكراً .. حلمه منذ أن تزوج بأمي ..! فإذا بها تلقي في وجهه بالمصيبة الرابعة .. ليزداد اكتئاباً ؟؟ لكنه كان أكثر تحضراً من جدي .. صحيح أن تحضره هذا لم يتدفق في رأسي شقيقتي الكبيرتين خديجة وأم كلثوم تعليماً ووظيفة .. إلا أنه ما أن أنشأت الحكومة الوحدة المجمعة في قريتي المعصرة _ دقهلية _ حتى ألحق فاطمة ، ثم أنا بعد ذلك بمدرستها .. وبفضل نصيحة الشيخ عبادة صلاح ما كان ضيق الأفق إلى الحد الذي يدفعه إلى سحبي من فضول الدراسة حين عدت إلى البيت يوماً منزوعة الحجاب كما أمرتني أبله سعاد .. بل توجه إلى المدرسة ووجه إنذاراً إلى الناظرة :

– لو فرضتوا على البنت إنها تيجي من غير حجاب يبقى مش هتيجي ..
كم تلميذة في صفوف المدرسة تثن رؤوسهن الصغيرة مثلي تحت هذا
الغطاء الصوفي المحكم !! ثلاث .. وكنت الرابعة .. وما كان الشيخ
رضوان الحناوي يهدف من وراء ذلك أن يسجل التاريخ اسمه كباعث
للحجاب .. انما هو قلق " أبو البنات " الذي يفتش في الدين عما يمكن أن
يعصم بناته من السقوط ..!

لكن أبي كان لديه قدر من التحضر تجسد في إنصاته إلى الناظرة
والمعلمات وتوسلهن ومحاورتهن:

– دي لسه طفلة ..! ازاى تعمل فيها كده يا حاج..!

إلا أن تحضره لم يحل دون أن يصيح بغضب:

– أنا بريها زي ما الدين بيقول ..

لم يتراجعن:

– يا حاج .. الدين في الأخلاق والسلوك .. وزينب ما شاء الله مؤدية وشاطرة
.. ويعدين ما إنت شايفنا أهه من غير حجاب وكل بنات المدرسة وحتى
القرية .. اشمعنى زينب يعني ..!

– القرآن بيقول يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين
عليهن من جلايبهن .. صدق الله العظيم .. الله سبحانه وتعالى بيقول
نساء المؤمنين .. مش طفلة عمرها سبع سنين!

– ولو سنة واحدة ..

وفاضت عيناى بالتوسل إلى الناظرة والمعلمات ألا يلحجن في هذا الأمر
.. وأتذكر أنني أخذت بنصيحة أبي حين عدت ذاك اليوم وبعد أن صليت
الظهر وسنته .. صليت أيضًا ركعتي شكر لله لأن تلك المشكلة انتهت
بعدم انتزاعي من المدرسة .. وكان أبي يقول لنا دائمًا : حين يهبنا الله إحدى
نعمه .. فعلينا أن نصلي له ركعتي شكر!

وما كان يقوله أبي هو نقل أمين لنصائح الشيخ عبادة صلاح واعظ جامع المعصراوي .. فأسمأؤنا كانت فيض نصائحه .. وأحمد الله أنه كان على قدر من الاستنارة على غير عادة أقرانه من المشايخ.. فلقد أدخل ثلاثة من بناته مدرسة الوحدة المجمعمة .. ليحذو أبي حذوه .. فإن كان حب أبي على ألا يرضخ لرغبة ناظرة المدرسة بنزع حجابي .. إلا أنه حثه أيضًا على أن أستمري في الدراسة .. وسمعتة حين جاء ليمضي بعض الوقت مع أبي بعد صلاة العصر يقول:

— من يدري يا رضوان ..! مش جايز ربنا سبحانه وتعالى يطرح في البنات دول البركة ويحققوا إليي ما يحققوش الذكور!

وكانه يستشف المستقبل .. فأجدي بناته كانت أول من يلتحق بكلية الطب من القرية .. وابنة له مدرسة وأخرى محاسبة في بنك التسليف الزراعي..

وحين التقيت بابنته الدكتورة عفاف في حفل زفاف .. وقلت لها بامتنان أنه لولا والدها الشيخ عبادة صلاح لما تعلمت أنا وأختي فاطمة.. فقالت إنه تأثر كثيرًا بمؤلفات الشيخ محمد عبده ..!! كان على ما يبدو يبحث عن يهزه بعنف صائحًا في وجهه أنه لافرق أن يكون لديه ثماني بنات أو ذكور.. المهم كيف تكون التربية .. ووجد ضالته في الشيخ محمد عبده .. كان الشيخ عبادة طفرة في التطور الحضاري بالقرية كلها .. وفاض ببعض مما لديه على أبي .. إلا أن الدكتورة عفاف أخبرتني بما روعني:

— عارفة حكاية البنت سندس .. سندس البيلي؟

— إليي قتلها أهلها من عشر سنين!!

— تالت يوم جوازها .. عريسها رجعها لأهلها .. لأنه اكتشف أنها مش بكر .. أخوها الكبير قتلها .. دكتور زميلنا يعرف الدكتور إليي فحصى الجثة .. عارفة قإليي أيه ..! البنت كانت عذراء .. بس غشاهما مطاطي .. الكلام ده ما قالوش للنيابة بالاتفاق مع أهلها .. ما حدش

عارف أياه إلهي كان يربطوا بهم.. وطبعاً كان الهدف من عدم اظهار الحقيقة أن ابنهم ياخذ حكم مخفف!

– مش أخوها الجدد الصايغ إلهي اسمه خليل البيلي..!

– طلع من السجن بعد خمس سنين .. وأكد فضايحه مع البنات الغلابة إلهي بيشتغلوا في غيظهم وصلتك..

– أيوه .. سمعت أن واحدة حملت منه وطقشت من البلد ..

– وهو كل ليلة قاعد يحشش على القهاوي .. وبارم شنباته فخور برجولته..!

– طبعاً .. مش قتل أخته لمجرد الشبهة ..!

وهل تلاشى هذا الفكر البالي .. أن العار فرج امرأة!!

الإجابة لا مهينة .. تخرج لسانها لكل دعاء الاستنارة في الوطن الكبير .. وأنا عائدة من الجامعة انتبعت إلى أن فكرة تأنيث العار واختزاله في فرج امرأة ما زالت تعشش في عقلنا الجمعي على حد تعبير عالم النفس الشهير (يونج) .. والفضل في هذا يعزى للأسطى محمد سكلانة الميكانيكي حين عرجت عليه لتغيير طللمبة المياه بسيارتي .. طلب من صبيه أن يأتي له بمفتاح ١٢ أو ١١.. لا أتذكر .. أتى الصبي النحيل بالمفتاح الخطأ .. فإذا به يزقق فيه بما زلزلني:

– مش ده يا ابن المرة المتن ..! "أعذرني .. لا أستطيع أن أكمل

الكلمة حتى ولو كنت قد أخذت عهداً على نفسي بأن أكون صريحة واضحة .. لا لبس أو التواء في أوراقي تلك .. وأن أكون

وللمرة الأولى أنا زينب رضوان العناوي بغير زيادة أو نقصان .. أمام آخر .. لكن قلم الأنتى لا يقوى على خط حروف كلمة مثل تلك .."

حين لفظها محمد سكلانة كابدت ليحتفظ وجهي بجمود تعبيراته ..

وكأنني لم أسمع شيئاً .. "لمن لا يعلم من الرجال تتفق المرأة نصف طاقتها

اليومية مكابدة في الاحتفاظ بجمود تعبيراتها والرجال يمطرون بعضهم بعضاً بألفاظ شبيهة جهراً في الشارع وحتى أماكن العمل .. لذا لزم التنويه " .. أقلب اللفظ في رأسي ... لماذا لا يسب الصبي بأن يصيح فيه يا ابن الراجل" النيسي .. "مثلاً ..؟ لأننا ما زلنا نفكر بعقلية جدي .. العار كل العار في المفعول به .. وربما المجد للفاعل ..

لكن الميكانيكي كان مهذباً .. يعرف كيف يتعامل مع النساء بكياسة! .. حين انتبه إلى وجودي قال معتزلاً:

– ولا مؤاخذه يا هانم .. العيل من دول عشان يبقى أسطى بحق وحقيق لازم نذل أنفاسه ..!

وانتابتي رغبة قوية في أن أنهره صارخة:

وإذلال أنفاسه لا يكون إلا بتذكيره بعار أمه!.. ثم هل لأنها مفعول بها تصبح عاراً..!! إذن يا أسطى سكالنة لأنتي ووالدتك أيضاً مثل أم هذا الطفل .. مفعول بتا .. فتحن أيضاً عار ..!!

لكنني بدلاً من أصرخ مويخة إياه أفاجأ بابتسامة ترف على شففتي.. ذلك أنني تذكرت هذا الفيلم الأجنبي الذي شاهدته ليلة أمس .. حين صفتني بطلة الفيلم الممثلة (باريس هيلتون) بذات الكلمة وهي توجهها لإمرأة أخرى!! الفيلم أمريكي .. في العقل الجمعي هناك أيضاً ما زال العار للمفعول به .. ولقد أخبرني أحد المعتقلين والذي أمضى ١٥ عاماً في سجن الواحات أن تلك كانت إحدى وسائل التعذيب المحببة المتبعة معهم ..

.. السجنان يعذب ضحيته .. لا يكف عن تعذيبه حتى يقولها: أنا مرة ..!! يتأتيء بها في مذلة .. فيهديه السجنان اسماً .. وصمة عار:

– من دلوقتي أنت سميرة .. اسمك أيه؟

– اسمي سميرة ..!

إلا أن معتقلاً شيوخياً لم يرضخ أبداً.. وكلما ضربوه ليفظها: أنا مرة

..!! كان يصيح: مش عار إنني أكون ست .. بس مش ها ناولكم إللي في نفسكم ..!! أظن أن إسمه كان .. عذراً اسمه لا يحضرني الآن .. لكن إن سألت عنه أحد أصدقائك من الشيوعيين القدامي قد يجيبك ..

مات أبي ..!! هل أفرح ..؟ أبواب الحرية التي أوصدها عقب انبثاقي من بين فخذي أمي ستفتح لي بعد موته .. أمي الطيبة لن تحول دون أن أرتدي ما أشاء من ملابس وأن أبحث عن وظيفة .. وأحب وأتزوج بمن أحب ..! لكن عازراً أن أفرح في موت أبي .. حتى لو كان موته يفتح لي أبواب الجنة .. لن أنسى ما قاله يوماً لشريكه في تجارة الحبوب حين عرض عليه أن يتزوج .. كان لديه عروس تمت بصلة قرابة إلى زوجته .. أرملة .. لو فعلها أبي ما انتقده أحد .. كان هذا كما يقولون " سلو بلادنا " .. الذي يتمسك به بشراسة ذكور عائلة أبي .. مثنى وثلاث وربعا .. قال شريكه محاولاً إغواءه:

– دي إنشاء الله إللي هتجيبك الولد إللي نفسنا فيه يا شيخ رضوان!

و سمعت أبي يومها يقول للرجل في المنذرة الكبيرة ..

– يا مصطفى .. إللي بيحب ولاده ما يتجوزش على مراته..!

ياه يا أبي ... صحيح أنك لا ترفض الزواج ثانية.. ليس إكراماً لأمي .. بل خوفاً علينا .. أكل هذا الحب تكنه لنا ..؟ فلماذا تقاوم حتى لا يطل على أي منا من دواخلك شعاع حب ولو في خفوت ..؟ ثلاثة أرباع حديثك في الدنيا كان توبيخاً وزعيقاً فينا وأمناً ..!

وما أن انصرف الرجل من المنذرة حتى اندفعت من باب الحوش مرتمية في أحضانه .. دفنت وجهي في صدره .. أخوفاً من أن يضبط دمعاً في عيني ..؟ لم تكن دمعاً .. بل نورا من الدموع .. لم يع ما بداخلي .. سألتني بدهشة ..

– فيه أيه يا زينب ..!

وحين رفع وجهي الغارق في دموعي .. صاح في غضب:

– فيه أيه يا بت ..؟ حد زعلك في المدرسة ..؟

قلت وأنا أحنف دموعي بأنامل خجلي ..

_ ما فيش حاجة يابا .. بس كان نفسي أقولك ..

تحجرت الكلمات في جوفي ..

يستعشي بشيء من القلق ..

_ إنطقي يابت فيه آيه ..! حد عمل فيك حاجة وحشة ..؟؟

أهذا ما كان يقلقك يا أبي .. أن تتعرض إلى ما يهين عرضك وشرفك...
فزع "أبوالبنات" الذي يلازمك دائماً؟! اطمئن.. ما تعرينا إلا في غرف أزواجنا
الذين انتقيتهم أنت وأمي .. خديجة وأم كلثوم بقرتان ولودان حلويان في
بيت زوجيهما الثريين .. فاطمة عاشقة لفحولة زوجها الذي لم يبخل عليها
بثقافته الجنسية الواسعة فتعيد تصديرها إليه عبر حقول سريرها فاكهة
أنوثة طرح أول ..!!

.. لفظت سريعاً وفي ارتباك ما بداخلي ..

_ يا با أنا.. أنا بحبك .. بحبك قوي ..

فلتها ورأسي مطأطأة في حجره .. وكان كارثة أن أبوح بمشاعري حتى
لأبي ..

رفع وجهي بكفه ونفذ إلى عيني بنظرة متسائلة .. لكن أظنها كانت
مشبوبة بقدر من العنان .. ثم ربت على ظهري وقال ..

_ طيب يا زينب .. قوللي لأمك توضع العشا .. عشان ناكل كلنا سوا ..

وليلة أمس .. وبعد خمسة وثلاثين عاماً شعرت بحاجتي الملحة إلى حجر
أبي لأدفن فيه رأسي وأقول له: كم أنت عظيم يا أبي .. كم أحبك ..! ولماذا
ليلة أمس ..؟ نزلة برد حادة فاجأتني بعد منتصف الليل .. بدأ هشام قلقاً ..
أرضى قلقه أنوثتي فودعته بنظرة حائبة وهو يركض خارج المنزل لشراء
دواء لي .. لكنه غاب .. انتابتي الوسواس .. القرية غارقة في الظلام الدامس
مع انقطاع التيار الكهربائي منذ يومين والطرق موحلة بعد ليلة ونهار من

العواصف والأمطار الغزيرة .. أحاول إغماض عيني على صوت رخات المطر
الرتيبة .. لكن أذني المصويتين في توتر نحو السكة الزراعية لالتقاط
صوت موتور سيارة هشام ونوبات الكحة المتلاحقة يحولان بيني والنعاس ..
أشعر بحاجتي الماسة لكوب نعناع ساخن أو كمون.. نهضت .. ربما أيضاً
للإنفلات من بين براثن القلق .. توجهت إلى المطبخ .. لأعد لي كوب نعناع
.. لم أجد في المطبخ نعناعاً أو كموناً .. لم أشأ إزعاج زهرة زوجة عدلي..
عدت إلى فراشي لأعاود تصويب أذني نحو السكة الزراعية .. لتلتقط أخيراً
صوت سيارتنا ..

– ليه التأخير دا كله يا هشام؟

– أعمل آيه ..! ما فيش ولا أجزاخانة في البلد فاتحة فرحت بلقاس..

– إزاي بقي وأجزاخانة الدكتور صمويل على بعد خطوتين وفاتحة ليل
ونهار..!

– عاوزاني يا دكتورة زينب أجيب دوا من نصراني!

صفتي عبارته .. ينطق بسخرية اسمي كيف لزوجة رئيس جمعية
أحباء الرسول والتي تحمل اسم ابنة نبي الإسلام وتشهد في صلواتها
الخمسة وتوابها من النوافل كل يوم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله
أن تتعاطى دواء من مسيحي ..! ألف رحمة ونور عليك يا أبي.. كان يتواد مع
عائلة صمويل .. ويمضي بعض أمسياته في محلاتهم يثرثرون في أمور الدنيا
بمودة .. يزورهم في أعيادهم ويزداد التحاماً بهم في أفراحهم وأتراحهم ..
ويستقبلهم بحفاوة حين يطرقون أبوابنا .. حين استغاث به رفائيل والد صمويل
في النزاع على قطعة أرض بينه وبين جارنا وصديق أبي علي أبو حامد .. شهد
أبي شهادة حق .. أحقية رفائيل في الأرض .. تعلم فك الخط وحفظ بعضاً
من القرآن والأحاديث النبوية الشريفة في كتاب الشيخ قديري..! وكانت
كافية ليعرف أن أجنحة عدالة الإسلام يستظل بها الجميع .. ولو زاد وتعلم
المزيد من الدين الصحيح لما شهد شهادة أخرى غير شهادته..! وما أصابت

الدهشة أهالي المعصرة حين حكم أبي النصراني .. كانوا مثله .. تحتشد
الدواخل بتراث تراكم أب عن جد .. أن الرسول حين أوصى على سابع جار
لم يذبل وصيته بشرط أن يكون إسم الجار محمداً أو علياً وليس جرجس أو
عيزراً؟ وما عرفوا أن النبي الكريم قال ضيقوا عليهم في الطرقات إلا من
أحاديث الشيخ هشام وجماعته المشكوك فيها في مسجد السنين...!

آه يا أبي.. كم أتوق اليك ..!

هلت له في عتاب:

– يا سيدي مش الضرورة بتبيح المحظورات .. في ليلة زي دي ما فيهاش
حاجة لو اشتريت النوا من صمويل ..

– يا دكتورة النبي عليه الصلاة والسلام بيقول في حديثه الشريف: أمرت
أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله .. فإن
قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم .. يبقى إزاي أنفع واحد نصراني
في الوقت إللي المفروض فيه إني أحاربه إلى أن يشهد الشهادتين ..
الناس دي ما لهمش عندنا غير حاجة من إثنين إما يدفعوا الجزية أو
يتخلوا عن حياتهم!

ولم أشأ أن أفجر قضية العلاقة بين الأديان وحقوق المواطنة .. بينما
الساعة تقترب من الرابعة فجراً ..!

كان لدى جدي شيخ البلد خمسة وثلاثين فداناً .. أنفقتها على زيجاته
السبع .. لا يجيد أعماهي شيئاً سوى العمل في الأرض .. لكن الأرض
بددها جدي الحناوي بين أفخاذ النساء .. كما كان أبي يردد بمرارة ..
فاضطروا إلى استئجار أراضي آخرين وزراعتها .. إلا أبي .. حتى حين
عرض عليه أخوالي أن يعمل معهم بنظام المشاركة في أرضهم رفض ..
ونزل إلى سوق البلدة .. يشتري أرزاً وقمحاً وأذرة بكميات قليلة ويبيع ..
أرباحه قليلة .. وكانت تكفي بالكاد لسد رمق أفراد عائلته الصغيرة .. هو
وأمي وخديجة وأم كلثوم .. لكن البيت الطيني الكبير يضيق بسكانه

.. ثمانية أعمام كل منهم حشر هو وزوجته وأولاده في غرفة أو غرفتين ..
وقبل الفجر تتسابق النسوة على "الكرسي" في آخر الدوار لقضاء حاجتهن
.. قبل أن يستيقظ الرجال .. "ولا أدري لماذا كانوا يسمونه بالكرسي،
وهو ليس بكرسي .. بل حفرة بعمق متر أو أكثر تتسع لبرميل توضع على
حافته خشبتين .. وينزحه "زعبله" كل أسبوع ..!! لا عهد لي به .. لكن هذا
ماحكته لي عمتي .. "أما الصغار .. فكانت الأمهات تكرشهم إلى خارج
البيت .. ليقضوا حاجتهم في الشارع .. وما يدخل جدي ببعض جيناته على
أبنائه .. تزوج بعضهم على زوجته .. وأحدهم تزوج أربعا .. ولأن البيت لا يطبق
فكانوا يستأجرون بيوتا طينية متهاكة لزوجاتهم الجدييات .. وما كان
البيت الكبير مأوى للسكن فقط .. بل ميدان حرب .. فالأعمام الثمانية
ينتمون إلى أربع أمهات .. وأبي ينتمي إلى أم خامسة .. ورغم طيبة أمي إلا أنها
لم تنعم بيوم دون مشاجرة مع إحدى "سلايفها" .. ورغم صرامة أبي ولا أقول
شدته مع أمي إلا أنه كثيرا ما يتشاجر مع إخوته إنتصارا لها .. لا أتذكر
شيئا عن الحياة في البيت الكبير .. لأن أبي حين طرد ما كنت قد ولدت
بعد .. حكيت أمي سبب الطرد بأسى .. حكيت كل هذا التاريخ القديم
الذي تشكلت في أتونه وهي على فراش مرضها ..

– كنت حبلى في فاطمة .. في الشهر الثامن .. سلايفي كانوا عاوزيني
أنضف الزريبة .. إزاي والحمل هددني .. وكمان احنا مالنا والزريبة
.. أبوك مشى في سكة التجارة وساب الغيط والبهايم .. فوقية مرات
عمك عبد السميع الله يرحمها شدتني من فوق الكنبه فوقعت على
الأرض .. لكن الله ستر .. واتبلوا علي إنني إللي ابتديت بشتيمة فوقية
وعمك .. وطلبوا من أبوك إنه يسب البيت .. فساب البيت في نفس
الليلة .. خالك متولي الله يستره دنيا وآخره فض لنا أوضة قعدنا فيها
كم شهر لغاية ما نقلنا على بيت بالإيجار .. وبعدين رينا وسعها على
أبوك في تجارته وبنى لنا بيت كبير .. واشترى طاحونة وكتبها
باسمي بيع وشرا عشان اخواته ما يطعموش فيكوا بعد موته .. ومن

ربيع المطاحونة علمتكم إنت وأختك فاطمة بعد وفاة أبوكم.. خالكم
متولي ماسبنيش .. كان في مقام أبوكم .. ما هو الخال برضه والد..
- عشان كده جوزتيني ابنه هشام!

- وماله هشام يادكتور..! ماهو مهندس في الزراعة قد الدنيا.. كان نفسي
خديجة وأم كلثوم يتعلموا هما كمان .. لكن في زمنهم ماكانش فيه
مدارس في البلد .. ومش ممكن أبوكي كان هيوافق إن بناته يروحوا
المدرسة إللي في بندر بلقاس.. أبوكي كان بيخاف عليكموا قوي .. آمال
.. البنات برضه ولايا ..!

وعرض وشرف وعار .. هذا ما لم تقله أمي ..

لكن هل الجدران الشاهقة التي شيدها أبي حول بناته حمت شرفه
وعرضه؟

كثيراً ما كان يتأخر أبي في ماكينة الطحين .. ربما إلى الساعات
الأولى من الفجر .. ولديه بالطبع إعتقاد راسخ أن بيته في أمان .. فخالي
متولي وأولاده عدلي وهشام و نور الهدى وزهيرة لا يكفون عن التردد علينا
.. بل أتذكر أن حاجاتي المدرسية كان يليها عدلي الذي ترك المدرسة
من الصف الأول الإعدادي وتفرغ للحقل أو هشام الذي واصل دراسته ..
ذات أصيل طلبت أمي من عدلي أن يصعد إلى السطح لتجهيز عدة ربط
من القش للخبيز .. صعد وفي أثره أختي أم كلثوم لمساعدته .. كنت
مستغرقة في حفظ آية قرآنية هددتنا أبله سعاد بأن من لا يحفظها سيحرم
من الخروج لمدة أربعة أيام في الفسحة الكبيرة .. وحين انتهيت من حفظها
.. هرعت إلى السطوح ومعني كتابي ليسمعها لي عدلي .. لتداهمني توسلات
خافتة يتردد في ثناياها اسمه .. وهالتي ما رأيت .. أم كلثوم أسفله تصارع
ساقاها العاريتان ساقيه أيضاً العاريتين .. ووجهه يطارد وجهها للحظات قبل
أن تستكين شفتاها بين شفتيه ..! استدير في هدوء نحو السلم الخشبي ..
عائدة بشرخ إزداد مع السنين اتساعاً إلى مدني الداخلية الصاخبة دون أن

يتجاوز صبغها حلقي .. حتى حين تقدم تاجر موبيليا من بلدة أخرى .. طالباً يد أم كلثوم .. صرخ داخلي: ولماذا لايتزوج عدلي من أم كلثوم...؟ بدأ زواج التاجر بأم كلثوم ينال رضا الجميع.. ينتمي إلى عائلة كبيرة وثرية .. احتفت به أمي .. درع أمان آخر لأسرتنا التي حرمت من الشقيق الذكر الذي يحمي.. وزادت قشرتها الخارجية ضعفاً بوفاة الأب .. حتى أم كلثوم بدت سعيدة بعريسها .. ولا أظنها تكن أية مشاعر نحو عدلي .. وربما كان مشهد السطوح طفق غريزة شاب مراهق لا فيض قلب رجل محب .. وما أكثر طفح الغرائز وبراميل المنى التي تسفح في عتمة بيوت الريف الكبيرة بين أبناء وبنات العمومة والخزولة..(ولا أظن أن تلك الحقيقة تغيب عن قروي مثلك .

أما أنا.. فأظن أن أمي كانت تخطط لي بشكل آخر .. هشام لي وأنا له .. ولماذا أنا وليست فاطمة؟ لأن فاطمة كانت تكبره بعام .. في حين كنت أنا أصغره بأربعة أعوام .. ويبدو أن الأمر كان معداً له مسبقاً في السرايب السرية للعائلة .. حين أحصل على الثانوية العامة تعلن خطوبتنا .. (الهذا عندما وثب هشام إلى منزلنا ووجهه يطفح بالفرح ذات صباح صيفي قانظ .. وقيل أن ينطق .. صاحت أمي:

– بشر عروستك بالنجاح ياهشام .

ليصبح بدوره:

– ويتفوق كمان يا عمتي .. ٧٦%

وما تخيلته أبداً رجلي .. شريك مخدعي الأثري فوق السحاب .. أحببته ابن خالي .. بل أخي .. رجل العائلة القوي .. لكن ليس .. ليس رجل غرفة نومي .. وما كنت أرى غرفة النوم سوى علياء تتماس فيها أرواح المحبين ولاشيء عن الجسد أبداً.. "

وكانت أبله هدى معلمة اللغة العربية في الصف الثالث الإعدادي أول من أرشدتني إلى الطريق الذي يتواءم مع مخدع روحي في العلياء.. وما كان يعنيه حشر المنهج حرفاً حرفاً في رؤوسنا .. كانت تعلم أن القصائد التي

ندرسها _ بعضها من الشعر الجاهلي _ ثقيلة على الاستيعاب .. كان ما
يعنيها ألا نحفظ أو حتى نفهم فقط .. بل أن نحب هذا الشعر الذي ندرسه ..
أظنها أمضت حصة تشرح لنا جماليات بيت امرئ القيس.

مكر مفر مقبل مدبر معاً .. كجلمود صخر حطه السيل من عل

وكنا نتابعها كرهاً دون أن نتمكن من أن نقمع الرغبة في التناؤب ..
ولم نفهم أبداً .. ولأنها طيبة لم تحمل عصا في هذا الزمن الذي كان فيه
التعليم بالفلقة .. فلم يقاوم بعضنا الرغبة في النوم .. لاحظت ذلك .. فإذا بها
تلجأ إلى ما ظنناه تغييراً في الحصة :

_ مين فيكم صوتها حلو يا بنات .. تقدر تغني؟

انتفض الفصل بالصخب المرح فجأة وانتهى الصخب بوقوف طالبة
لتغني ..

_ هيه .. هتغني أيه يا صفاء؟

في ارتباك ..

_ مش عارفة يا أبله .. ممكن أغنية فاييزة أحمد يامه القمر على الباب

_ أغنية جميلة .. طب اتفضلي

بدأ صوت صفاء في البداية مخنوقاً لكنها سرعان ما تماسكت
وانطلقت في انفعال :

_ يامه القمر على الباب نور قناديله .. يا أمه أرد الباب واللا أناديله ..

تسألنا أبله هدى :

_ إيه رأيكم؟

في نفس واحد :

_ صوتها جميل يا أبله

_ والأغنية ..؟

– جميلة

– أية إلهي جميل فيها .. الكلمات واللا الموسيقى..؟

– الأثنين يا أبله

– يعني الصوت جميل .. والموسيقى جميلة .. والكلمات جميلة .. مش ده هو إلهي عاوزين تقولوا!

– أيوه

– عارفين ليه هي أغنية جميلة ..؟ علشان المؤلف كتب الأغنية باحساس صادق .. والملحن حس بالكلمات كأنها بتعبر عن حاجة جواه هو مش حد ثاني فانفعل بيها وعمل اللحن الجميل ده.. والمطربة حست بنفس المشاعر إلهي ورا الكلمات والموسيقى وعاشت فيها بكل جوارحها فكان أداؤها صادق ومؤثر .. كأن الثلاثة عايشين نفس التجربة .. الحبيب إلهي من جماله زي القمر واقف على الباب .. ولما تكون المسألة كده .. المتلقي إلهي هو هنا المستمع هو كمان هيتوحد مع نفس المشاعر .. صح؟!

– صح يا أبله ..

– طيب احنا بنقول الكلمات جميلة .. وبنقول إنها جميلة علشان بتعبر عن مشاعر صادقة .. إزاي ..؟ المشاعر بتبان في تركيب الكلمات والتشبيهات .. طبعاً دي كلمات شاعر موهوب .. لكن الموهبة وحدها مش كفاية علشان تعمل أغنية جميلة .. صدق المشاعر .. شوقوا فايضة بتقول أية: يا أمه القمر على الباب .. طيب حد يقدر يقول إلهي مين القمر ده ..؟ تقصد القمر إلهي في السما؟!

– لأ يا يا أبله .. بتقصد حبيبها .. بس من جماله وضي وشه زي ما قلتي بتشبهه بالقمر ..

– علشان هي بتحبه بصدق فبتشوفه جميل في بهاء وشاعرية القمر..

ولأن الحبيب فرحان بحبيبته منور قناديله .. شوف احنا أما نكون في مناسبة جميلة .. عيد واللا فرح واللا مولد نبوي .. بنعمل إيه؟ .. بنئيد الأنوار .. طيب وبعد كده .. بتسأل أمها: يا أمه أريد الباب واللا أناديله ..! شوفوا الكلام قد إيه حلو ومؤثر .. كلمة أناديله اتكررت مرتين .. بس فرق كبير بين المعنى في كل مرة .. الأولى تقصد فايزة القناديل المضيئة " نور أناديله " وفي المرة الثانية .. تقصد النداء .. تنادي عليه .. تدعوه للدخول مرحبة به كعريس .. كشريك عمر .. دا بنسميه في البلاغة إيه؟

– الجنس يا أبله

– والجناس والتشبيهات والتقديم والتأخير والتورية .. الحاجات إللي بندرسها وشايفين أن دمها ثقيل .. هي دي الجماليات .. وأنا نفسي تسمعوا الأغاني وتتأملوا في كلماتها هتجربوا البلاغة واللغة العربية.

– بس دي يا أبله أغاني بلغتنا إللي بنحبها .. إنما فين الجمال إللي في مكر مفردى ..؟

– أولاً لازم تعرفوا أن العامية مش لغة .. دي لهجة جاية برضه من الفصحى وتعالوا نشوف يا أمه القمر عل الباب نور أناديله .. كلها فصحي .. أمه .. من الأم .. أناديله الأولى زي ما قلت لكم .. القناديل .. الثانية من النداء .. وزي ما في العامية جمال فيه في الفصحى جمال وده إللي هنعرفه الحصة الجاية لما نرجع لقصيدة امريء القيس .. هتتعرفوا قد إيه صورها جميلة .. بس دلوقتي عاوزة أسأل: حد منكم سمع أغنية الأطلال؟

– أيوه سمعناها

– مين حفظها ..؟

– مش كلها

_ طيب شوفوا أم كلثوم بتقول إيه:

أيها الساهر تغفو .. تذكر العهد وتمحو

فإذا ما التام جرح .. جد بالتذكار جرح

فتعلم كيف تنسى .. وتعلم كيف تمحو

وفيه بيت جميل في نهاية المقطع ما غنتوش الست مش عارفة ليه رغم جماله.. البيت ده بيقول:

أو كل الحب في رأيك غفران وصفح؟!

فهمتوا حاجة؟ قوللي يازينب .. فهمت إيه من الأبيات دي ..؟

ألجمتني المفاجأة .. ولماذا أنا؟ لو كان سؤالاً في المنهج .. لأجبت.. لكنه سؤال في .. الحب .. ولدي ما أقوله .. الحصة كلها تروقني .. لبت التعليم كله هكذا ..! في ارتباك:

_ الشاعر بيستتكر على نفسه إنه يقعد طول الليل سهران موجوع بذكريات حبيب خانة أو هجره ..

أكابد في سحب أنفاسي .. لكن ما قلته يروقها .. فتستحطني مشجعة:
برافو يا زينب .. هه كملي

وفي النهاية بيجزر نفسه أو بيسخر منها لما بيقول البيت إللي حضرتك قلتيه وأم كلثوم ماغنتهوش _ أو كل الحب في رأيك غفران وصفح؟

_ ممتاز.. شكلك بتسمعي أغاني كثير يا زينب..

ومنحني تقريرظها الجراءة إلى أن أطرح السؤال الذي يورقني ..

_ بس يا أبله .. فيه ناس بتقول أن الأغاني حرام ..

في استنكار:

_ حرام ..! مين بيقول كده ..؟

_ واحد شيخ كان بيזור خالي وكان الراديو شغال على أغنية فقال

أقفلوا الراديو .. لأن الأغاني حرام ويتعرض على الفسق .. والبيت إلهي
بيشغل أغاني .. مسكون بالشياطين..
_ كانت أغنية إيه إلهي بيذيعها الراديو؟
_ مسافر .. لشادية

وكانها تغادر المكان على سحابة شجن ..
_ خايضة تلاقى وردة تحلو في عينيك .. تتساني وتميل تقطفها بأيديك ..
وفوجئت بنفسي أكمل بصوت متهدج:
_ أقطفها بأيدي .. وماتجرحش أيديك
لتكمل أبله هدى بصوت حزين..
_ سيب الجرح لي وخلي الفرح ليك

صمت جليل خيم على الفصل .. أندهاشنا ربما لدمعة لم تسلم من عينيها
لكننا شمعنا رائحتها في ارتعاشة الصوت .. كنا نعرف من أي قرار تفجرت
الدمعة التي تججرت قبل أن تسيل .. خطيبها الذي سافر إعاره إلى الكويت
.. وتجاوزت عنفوان اللحظة سريعاً لتبتسم وهي تقول ..

_ إزاي نقول على كلمات جميلة زي دي بتجسد مشاعر راقية جوانا
إنها حرام ؟ طيب أنا هسألکم .. لما أنتم بتسمعوا أغنية لشادية أو
عبد الحليم أو ثومة .. حد منكم لا قدر الله ممكن يفكر بشكل
غاط...؟

_ لأ

_ الأغاني دي بتهدب مشاعرنا وبتترقي بيها .. وبتبص للحبيب بنظرة
روحية سامية .. يبقى إزاي تبقى حرام ..!

وكانها تضعني تحت مجهرها لتشرحني وتستتبت آراءها لتشرحها
للطالبات .. ومبكرًا .. قبل ذلك بسنتين أو ثلاث كنت أهرع إلى السطح
في عصاري العطلة الصيفية .. أرتوي من قصة ماجدولين لتزدهر حقول

القلب بمشاعر فياضة بحزن جميل ينهمر دمعاً غزيراً يبيلل أكوام القش
فلا تستطيع أمي استخدامه كوقود للخبيز في الصباحات الباكرة ..
لتشكو:

– القش مندي !!

ولا أود أن أقول بدمع أحزاني يا أمي على مأساة جيمس وماجدولين ..
وبعد ذلك بمأساتي أنا ..

وأمي هي التي نبهتني إلى ما أصبحت عليه .. حين رأيتي أقف في الشارع
مع سعاد جارتي وزميلتي في الفصل .. كانت الساعة تقترب من التاسعة
مساء ويبدو أن هذا أفزعها .. نهرتني وطلبت أن أدخل المنزل وهي تقول:

– إنت مش حاسة بنفسك يا بت ..؟ الشبان رايجين جايبين في الشارع وإنت
واقفة تتميصي زي الغوازي!

رددت في شيء من الانفعال:

– غوازي وشبان أبه يا أمه! .. أنا بتكلم مع سعاد عن حصص بكرة ..
فأخبرتني بما غاب عني:

– عارفة إنت عندك كم سنة دلوقتي ..؟ ١٣ سنة .. يعني فيه بنات زيك
بيتجوزوا ..!!

كنت أشعر بدبيب شيء ما يدغدغ في غموض دواخلي .. يلفحني بمتعة
خاصة وأنا أسبح مع صوت العندليب الأسمر الذي أترقب أغانيه عبر المذياع
الخشبي الكبير الذي يتصدر حوش البيت .. نعم نعم .. أنا بين شفائيك نغم
.. هكذا نكون تحت سقف الزوجية حبيبين لغتهما نغم .. وما زواجهما
إلا بأمر الحب .. وقبل ذلك حين واجهت تلك المعضلة التي فجرها بداخلي
العندليب .. فوق الشوك مشائي زماني قبالي تع إلى نروح للحب .. بعد سنين
قبالي أرجع ثاني هتعيش فيه مجروح القلب .. تساءلت في حيرة: أهذا هو
الحب .. شوك وجراح .. فلماذا نحب إذن ..؟ لكتني عرفت بعد ذلك لماذا

نحب .. ليس قراراً .. لا أحد يتخذ قراره بأن يحب أو ينهي حبه .. فما اتخذ
جيمس قراره بأن يقع في عشق ماجدولين ..

وأنا أيضاً .. ! هل أحببت هذا الشاب ..؟ في الصف الثالث الثانوي .. من
مهجري السويس .. جاءوا إلى بلدنا عقب النكسة وما كانت أسرته من
بين من جاءوا .. فلم أره إلا بعد أن غادر المهجرون عائدين إلى بيوتهم في
القناة عقب حرب أكتوبر .. أسرته جاءت بعد ذلك .. والده كان تاجر
أدوات منزلية .. استأجر دكاناً صغيراً في مدينة بلقاس ليمارس تجارته
.. ربما أيضاً كانوا يقيمون في المدينة أو قرية أخرى مجاورة إلا أنه بعد
حرب أكتوبر .. استأجر بيتاً في المعصرة ربما لتدني اجارات المنازل بها
.. خاصة بعد أن غادرها المهجرون واحتفظ بدكانه في بلقاس التي لا تبعد
سوى أربعة كيلو مترات .. بيتهم لا يبعد كثيراً عن بيتنا .. ومثل الكثيرين
من تلاميذ القرية .. السطوح مكانه المفضل للمذاكرة .. مثلي أيضاً
يستذكر بصوت عال .. صوته ذو البحة الخفيفة .. يصلني .. يتلامس مع
شيء ما داخلي .. فوجئت بنفسي معه في سباق .. من يصعد إلى السطح أولاً
.. أستيقظ مع أذان الفجر .. أصلي .. أتوق إلى بشائر الصباح .. لأركض فوق
درجات السلم الخشبي إلى السطح .. وأول فعل لي التطلع إلى المنزل الرابع
على يمين منزلنا .. لأجد شبحه يتربع على أعلى ريوه قش .. كأن ضحكة
تطل علي باستهزاء من بين ثنايا حروفه .. إذن ليكن موعدنا آخر النهار .. لن
أغادر السطح قبل أن يغادر هو .. لكن أمني تخذلني .. نداءاتها تلاحقني:

– إنزلي يابت عشان توضىبي العشا مع أختك ..!

.. وكأنه ضبط تقويمه مع تقويمي .. حين أسلك السكك الضيقة
المتعرجة داخل القرية في طريقي إلى المدرسة الإعدادية أشعر بأنفاسه
تلهب روحي لكنه في ذلك الصباح .. بارح مكانه خلفي .. ليجاورني ..
ليدس في يدي ورقة .. يا لجرأته وفجري .. كيف أسمح لنفسني باستقبالها
..!؟.. المفاجأة جردتني من كل الخيارات .. حتى خيار أن آخذ الورقة لم

يكن خياراً .. بل حالة من اللاإرادية .. لكنني الآن أظنها الخيار الجيني الوحيد والمعد سلفاً في تشكيلي الأزلي .. الأ أغلاق أبوابي في وجه أول نداء من رجل .. ربما أترك الباب موارباً .. لكن ألا أوصده ..! هذا اتهامك لي .. أنني أتبع معك سياسة الباب الموارب .. يبدو أن هذا قدرتي ألا أفتح الباب أبداً لكل عاشق يكابد لافتحام مخدعي جبنا .. ولا أغلقه شوقاً "هل تصدق .. في إحدى عباراته يقول: إما أستيقظ فجراً أو أظل ساهراً حتى الفجر .. ليس فقط لأهرع إلى السطوح قبلك محرزاً انتصاراً جديداً في سباق المذاكرة .. ربما يكون هذا السبب موجوداً وثمة سبب ثان مهم بالطبع .. كي أراك ولو من على بعد أربعة سطوح .. الأكثر امتداداً واتساعاً من جغرافية العالم التي ندرسها .. لكن لدي سبباً ثالثاً أكثر أهمية .. كي أتأمل نجمتين متجاورتين في الأفق الشرقي من السماء .. تتألمان خاض غلالة رقيقة من عتمة الغسق .. ترتعشان في جاذبية شفاه طفلة في التاسعة طلب منها أن تلقي لأول مرة كلمة في طايور المدرسة .. ما أكثر الشبه بين هاتين النجمتين وعينيك ..!)

ياه .. هل رأيت روعة الصورة ..!)

وليلتها وأنا أهيء نفسي للنوم .. بعث لي حلیم برسالة تأييد ومباركة من راديو المقهى غير البعيد عن بيتنا

– بأمر الحب .. افتح للهوى وسلم .. بأمر الحب افتح قلبك اتكلم .. بلاش نهرب .. بلاش نتعب .. تع إلى نحب ونسلم .. بأمر الحب ..

نعم يا حلیم هفتح قلبي .. بس أعذرني .. مش هتكلم ..

إسمه اسماعيل زهران .. ربما أصبح أديباً .. هل سمعت به ..!)

سافر وأسرتة ليقتضوا العطلة الصيفية في السويس .. لكنهم لم يعودوا .. وكلما توجهت إلى بلقاس أعرج على دكانهم .. فأجده مغلقاً ..! أعود إلى رسالته التي ما زلت أحتفظ بها في أدراجي السرية .. أكان سحر كلماتها نبع موهبة فذة لشباب في البلاغة وليس بركان عشق يمور تحت جوانحه

كما ظننت..! أكان أيضًا مثلك ومثل هشام مجرد قناص ..!
سألت عنه كل كتاب منطقة القناة .. بحثت عن اسمه في قوائم إتحاد
الكتاب .. نوادي الأدب في السويس... .. والأشياء ..! كان ينبغي أن يصبح
أديبًا كبيرًا .. فهل أجهضت موهبته مثل أجنة مشاريع عظيمة في بلادنا..!

كل البنات في قريتي .. كل قرى مصر لو فثشت في صناديق أحلامهن ستجد دائماً حلماً واحداً .. بيت العدل .. أحياناً ليس مهماً من يكون شريكهن في بيت العدل .. المهم أن يكون جدع ابن حلال .. طيب يعني ما يضربش مراته .. لا هل تتذكر هذا النقاش الذي دار بيننا خلال الندوة التي نظمتها جمعية نهضة المرأة .. كانت بعنوان "ثقافة المرأة المصرية" .. قلت أنت بسخرية إن البنت في مجتمعنا تتزوج لتكون أما .. لاشيء يعنيها في مشروع الزواج سوى أن تعجب .. وبعد الأنجاب ربما يتبدل دور الرجل من الذكر الذي يلحق إلى الجيب الذي ينفق .. قلت أيضاً إن افتقاد المرأة للأمان المادي وراء تشبهها بتلك الشراكة ولو كان لها دخل يكفيها وأولادها لربما اتخذت قرارها بالاستغناء عن الرجل .. ولو كانت محكومة بواعز ديني لأشعبت احتياجاتها الجسدية عبر زواج عرفي أو مسيار دون وجود رجل "لازقة" في البيت .. أظن أن ما قلته صحيحاً إلى حد كبير .. أختي أم كلثوم حين سألتها مرة هل هي سعيدة في حياتها الزوجية؟ قالت في رضا:

– الحمد لله .. كان نفسي في العيال وربنا إداني بدل العيل أربعة..!

لكن لماذا اختزلت المرأة دور الرجل في تخصيبها لتعجب .. ثم الانفاق ؟ لأنها تحت سقف الزوجية لا تجد بداخله الفارس الحلم .. المحب العاشق .. إن أحب فيسمو وإن غضب ففي نبل ..

هل تعرف ؟.. يخيل لي أحياناً أننا نحن النساء تحولنا إلى صندوق قمامة تقذفون فيه بكل عمقكم التي تتراكم في لا وعيكم .. في الشارع والعمل ومع النظام .. ولأنكم تمشلون في رد الصاع صاعين لهؤلاء لاتجدون أمامكم سوانا .. حلم المرأة في الرجل يتعرض لامتحان عسير في كل بيت ينتهي عادة بالفشل المريع .. وليس الفشل مظهره الوحيد الطلاق عبر دفاتر المأذون .. فإذا كان الطلاق يعني الانشطار .. فما أكثر البيوت التي

تصدعت .. انشطرت دون أن يأتوا بالمأذون ليطلق .. أكون هذا مصيري
إن تزوجت بهشام .. يا أمي .. يا خالي .. حلمي رجل محب غزلته من أغاني
حليم وثومة .. من قصيدة الأطلال التي حفظت أبياتها المئة والثلاثين في
عصاري العملة الصيفية بمخبئي بين أكوام القش .. بعد أن نبهتني أبله
هدى إلى مكنوزها من المشاعر^٩ ويبدو أن المديرية العامة للتربية والتعليم
بمحافظة الدقهلية رأت أن مافعلته أبله هدى يستحق العقاب .. خاصة بعد أن
تقدم بعض أولياء الأمور بشكاو تتهمها بتعليمنا الفسوق فنقلتها من سلك
التدريس إلى وظيفة إدارية .. إن لم تخني الذاكرة أمينة مخازن .. فاستقالت
ولحقت بزوجها في الكويت!!

وما راودتني أبدأ خيالات للعلاقة الزوجية مسرحها فراش ولمبة حمراء
وجسدان مشتبان .. فرجلي الذي أحلم به إلف أثيري .. وإن كان ثمة
كائن جسدي فهزيل بتعبيرات وجه حلیم الطاغية .. وسمرة هذا الشاب
السويسى ..

.. لذا بدا هذا المشهد الذي روعني في العجمي بالأسكندرية.. لغزا إزاء
الصورة التي تشكلت بداخلي لغرفة النوم ..

حين حصلت على تقدير جيد جداً في السنة الثانية بكلية الآداب قسم اللغة
الإنجليزية كافأتني فاطمة وزوجها بصحبتهما إلى الشاليه الذي يملكانه
في العجمي .. ويبدو أن القدر كان يخبئ لي مكافأة أخرى .. صدمة رغم
أنني تجاوزت ما سببته لي من ذهول إلا أنني في خلوتي استدعيها متأملة ..
في الخامسة صباحاً خرجت كعادتي إلى الشاطئ أستمد من زفير البحر
أكسجيناً يظهر خلايا روعي من الأكسدة .. لكنني شعرت برغبة في
دخول الحمام فعدت سريعاً .. دسست المفتاح في ثقب الباب يهدوء حتى لا
أزعج أختي وزوجها اللذين لا يتوجهان إلى فراشهما إلا في الثالثة أو الرابعة
فجراً

.. فوجئت بابن أختي هاني يبكي في صمت .. ضممته إلى صدري وسألته
في فزع: مالك يا حبيبي .. بتعيط ليه؟

أشار إلى غرفة والديه مكابداً في أن يللم الحروف على شفتيه:

– بابا بيضرب ماما

– بتقول إيه؟

– كنت رايح الحمام سمعتها وهي بتعيط وتصرخ ..

دون أن أدري .. وثبت نحو الغرفة .. دفعت الباب بقوة ليداهمني مشهد
لا ينتمي لتقويمى الإنسانى .. فاطمة مبعثرة تحت جسده ووجهها خارطة

ألوان وبحيرات وأخاديد لاعهد لي بها .. ففزع من فوقها في فزع ليروعي
ما لم يراود خيالي أبداً عنه .. عن كل الرجال الذين أعرفهم .. أساتذتي
في كلية الآداب الذين أحبهم .. أبي .. أعمامي .. أخوالي .. أشقائي .. عمود
ضخم ينتصب بين فخذي .. والمسكينة تشلها المفاجأة فلا تقوى على ستر
جسدها العاري أو حتى ضم ساقيها لتواري هذا الثقب الذي تجاهلت وجوده
سنين مراهقتي .. رغم الحاح معلمة الأحياء في المرحلة الثانوية على تأكيد
أهميته في استمرار وجود السلالة البشرية .

تذكرت في ذلك اليوم ما رده مرة أستاذ في الكلية تقول عنه البنات
أن وجهه مكشوف حين كان يعلق على رواية الليدي تشارتلي للكاتب
الإنجليزي د. ه لورانس .. قال في صوت عميق وكأنه يبوح بسر الحياة :

It,s pole and hole ..

وحين سألت زميلة لي ماذا يعني؟ قالت: دا مثل انجليزي يعني أن الحياة
في النهاية عمود وثقب !! تطالعت إليها لعلها تزيد فرمقتي في دهشة .. ثم
تساءلت: مش عارفة يعني أيه يا زينب عمود وثقب ..؟ وتوجست أن العبارة
ربما لها دلالتها الجنسية المبتذلة فلم أرد إلا أنني كنت في شوق لأعرف
وسرياً ما أنقذتني زميلتي من حرج تطلعي إليها وقالت: يعني قضيب وفرج
يا زينب .. عارفة دول والللا أشرحهم همه كمان!!

.. أهذا إذا الذي رأيته في غرفة نوم أختي هو عضو الرجل ..؟ بل شيئاً ..
شيئاً يشبه شمروخ هشام ذا الرأس الضخمة أو يشبه مايك الميكروفونات
القديمة .. كيف تطيقه فاطمة؟ لهذا كانت تصرخ ..؟ وما الذي يجبرها
على الحياة مع هذا الحيوان ..؟ هل أكرهه؟؟ كيف يكون هكذا ..
بوجهين؟ يبدو لنا دمث الأخلاق حنوناً .. وهو يخفي تحت ملبسه ذلك
الوتد ليفرسه بغير رحمة في أختي .. أهذا هو الزواج ..؟ يا إلهي .. أما من
وسيلة أخرى لننجب .. لتعمير الأرض .. غير وتد مدحت ..؟ أفر من المشهد
الرهيب إلى الحمام .. لا لقضاء حاجتي .. بل لأتقيأ ما رأيت وكأن جوفي هو

ذاكرتي التي ينبغي أن أظهرها من هذا المشهد اللا إنساني .. ثم انسلت مرة أخرى إلى البحر .. ويقلقني سؤال مفرغ: كيف ستكون المواجهة ؟ .. ولأنني عجزت عن الإجابة عجزت أيضاً عن العودة إلى الشاليه .. هل أتسلل إلى غرفتي وألملم أغراضي لانسحب عائداً إلى المعصرة دون أن يشعروا ؟ .. ليكن .. هذا هو القرار الصواب .. وأنا أهم بالنهوض فوجئت بأنامل تربت على كتفي .. فاطمة؟ ما هذا ..؟ وجهها مبتسم .. لكن الابتسامة لا تتجح في حجب مسحة الخجل ..

_ إيه ما زهقتيش من قعدة البحر؟

هل أفر .. لا .. لا بد من المواجهة .. لن تستقيم حياتنا بعد ذلك إلا بالمواجهة :

_ أنا آسفة يا فاطمة !

تتغابي .. لكنه ليس بالتغابي المطلوب في لحظة مثل تلك .. لماذا لاتعيني على مهمتي؟

_ إنتي عارفة أنا باعتذر عن إيه؟

تطلق ضحكة تنز شيئاً من الخجل:

_ على إللي حصل النهاردة ..

_ أصل أنا رجعت من البحر علشان أدخل الحمام لاقيت هاني بيعيط وبيقول إن بابا بيضرب ماما وعمالة تصرخ .. فما حسيتش بنفسي ولا قيتني بفتح الباب عليكم ..

يشعل وجهها بضحكة يهتز لها كل جسدها ..

ماذا أرى؟ إنها سعيدة .. امرأة تسعد بهذا الذي يحدث لها من رجل مثل مدحت لأبد وأن تكون مختلة .. ماسوشية .. كما يقول علماء النفس ..
أزرق:

_ إنت .. إنت له مش بتطلبي الطلاق ..؟ إزاي تعاشري راجل بيعمل فيك

تتطلع لي في ذهول ثم تعاود الضحك مجدداً .. لتتهض وهي تجذبني من يدي قائلة :

– طيب ياللا ياهيلة .. انضهر هيدن واحنا لسه ما فطرنناش !..

هيلة ؟.. نعم .. هذا ما أدركته بعد ذلك .. أن ذلك المشهد الذي لا يبارح ذهني يجسد حقيقة كل النساء .. ابن أختي بكى لأن أمه تصرخ .. وهو محق .. فالصراخ طلع الأمانا .. لكنه على الأسرة فيوضات نشوتنا .. وكم هو تعبير عن ماسوشيتي .. إحساسني بالألم ولو بصورة رمزية .. إحساسني بالإهانة وأنا أسفل .. وإهانة مضاعفة وأنا ساجدة .. أجتهد ليكون جسدي مطوياً نصفه الأعلى على نصفه الأسفل لتشكّل المؤخرة رأس زاوية حادة ترتفع في فراغ الغرفة في زهو أنوثي يكتمل باقتحاماتك .. لأعض على وسادتي الماء ونشوة .. " في ليلة وددت هذا .. تملكنتي رغبة قوية في أن أهاتفك لأسر لك برغبتني .. اتصلت .. خرّس لساني .. فلم أقبل وقلت أنت لأنهرك في النهاية : ما عندكش حاجة تتكلم فيها غير الكلام الفارغ " !

.. فعلاً .. صدقت أختي حين وصفتني بالهيلة .. بل أراه .. أجمل ما في الرجل .. ألم تسألني أنت مرة : ماذا يعجبك في الرجل ؟.. أنتذكر اجابتي .. ؟ قلت : عينان ضيقتان تتدفقان بشعاع نافذ ينبثق من عوالم ثرية بالغموض ..

ولم أكذب .. بل قلت نصف الحقيقة .. أما النصف الثاني .. هذا الذي يمكن أن يتوارى تحت سروال رجل أحبه !! .. وإياك أن تكون مثل حشرات مجتمعنا الكهفي وتتهمني بأنني امرأة ساقطة .. فأنتم تتحدثون بفخر عما يعجبكم في النساء .. من العينين إلى النهدين إلى الأرداف .. وكل يتفاخر وهو ينظر مؤكداً سلامة ذائقته الجمالية ..

لقد أدركت أن شعوري الهائل بكراهية مدحت في ذلك الصباح الصيفي الباكر كان بسبب إيغالي المفرط في عشق رومانسية ضي القمر دون أن أنتبه أن شاعرية القمر لا تحقق للأنتى الامتلاء إن لم يتعرض جسدها للسعة

الشمس .. " هذه الصورة أظن أنني أقتبسها من إحدى رسائلك لي " وربما أيضًا حيلة نفسية حتى لا أسقط في عين أبي .. هل قلت لك من قبل أن أبي اختفى يوم زواج أختي خديجة..؟ لا أتذكر إن كنت قد قلت هذا أم لا .. لكن على أية حال هذا ما حدث .. اختفاؤه لم يثر اهتمام أحد من كبار القرية .. وعرفت بعد ذلك من أختي لماذا اختفى؟ هروباً من مواجهة الحقيقة!.. زفاف ابنته إلى بيت رجل غريب .. إلى غرفة نومه .. سريره .. لينزع ملابسها .. لي طرحها عارية تماماً كما ولدتها أمها .. لـ "يركيها" .. أليست هذه هي الكلمة التي تفضلونها للتعبير عن فحولتكم؟! يركبها وكأنها دابة .. وفي قريتي لدى الذكور عبارة أخرى غير تلك .. " ينط" عليها.. وليس الفلاحون وحدهم الذين يتداولون هذه الكلمة البشعة .. بل حتى جارنا المتعلم موسى خريج كلية التجارة والمحاسب في شركة بيع المصنوعات .. شقيقة إبراهيم مدرس الإعدادي أحب نسمة زميلته المطلقة .. لكن أشقاءه وأمه عاجزون على أن يتزوج قدرية .. ابنة عمته.. تشاجروا معه .. أصوات الشجار اخترقت نوافذ بيتنا .. سمعت أخاه الأكبر موسى يصيح فيه ساخراً: بقى يا تيس.. تسبب البكر وتتجوز واحدة نط عليها راجل ثاني ١٩!

ياه ١٩! نحن بهذا القدر من الدونية في قواميسكم ..! إذا طالما الأمر هكذا فأبي كان محقاً .. كيف يتواجد ويشارك في صنع هذا المشهد المرع لابنته ..! ينبغي أن يختمني .. ورغم تأثير الشيخ عبادة علي أبي في أمور كثيرة .. لكن يبدو أنه لم يتمكن في ذلك اليوم من اقناعه بأن يبقى ليشارك ابنته وعريسها فرحتهما .. ربما يرجع ذلك إلى حداثة علاقتهما؟. كان أبي يرى أنها فرحة العريس الذكر وحده لأنه الفاعل المقتمم .. والعار لابنته المفعول بها. فلماذا لا يفر.. ١٩.. والد العريس يختمني فقط لو ابنه ما طوّلش رأسه وما عرفش..! لكنني ومع تراكم المعرفة والحاجز الزمني الذي يتمدد كل يوم لينأى بي عن مشهد العجمي .. شعرت أن نفوري القديم للرجل جسداً بدا وكأنه أوامر من أبي .. كراهية الذكورة جدار شيده أبو البنات في دواخل فلذات كبده الولايا لحمايتهن من كل قنّاص

أثيم .. لكنني في الحقيقة لا أكرهه .. بل كثيراً ما أستحضره .. وأقول الآن ما لا تقوى امرأة على قوله خوفاً .. هل عبرت في سطورى السابقة عن استهجانى لقواميسكم الجنسية الفجة؟ لكن دعنى أصارحك بهذا المخبوء في داخلي .. أن صياح جارنا موسى في شقيقه إبراهيم.. تحديداً عبارته " نط عليها راجل تاني " اخترقت أيضاً جسدى .. اعصاراً من الإثارة!

أترانى امرأة ملتبسة ..؟ لا أتذكر إن كنت قد اعتذرت في أوراقي السابقة عن أية تناقضات أو التباسات قد ترد في هذا السطر أو ذاك .. على أية حال إن وجدت شيئاً من هذا القبيل وبقينا ستجد .. فهذا دليل على أننى امرأة طبيعية .. إن أية كلمة ترد في أوراقي تلك هي أنا .. فإن دفعتك شهوة الفضول لأن تبحث عن أي خلل سيكولوجي وراء ما تراه التباساتي .. فلن تجد .. إنما هو ما غاب عن حديث أينشتين .. حين قال: ثمة شيان لانهائيان .. الكون والغباء ..! وإني مازلت أصغر على إضافة: والمرأة أيضاً ..! فإن رأيتي هكذا لانهائية .. فلا التباس ولا تناقض .. فكل ما يبدو في ملتبسا أو متناقضا إنما يعزى إلى قصور في معرفتك بي .. وليس لخلل في ..!

وعودة إلى سؤالك لي ذات مرة .. ماذا يعجبني في الرجل .. كنت تقصد جسد الرجل .. وإني الآن أقول ما لم أقله لك أبداً ..

أعلم أن كثيراً من النساء يولعن بالصدر الرجولي المعشب .. والليدي كونستانس تشارتلي أبدت إعجابها بجذع حارس الصيد باركين .. لكن حين انصهر جسده في جسدها وصفت ما حدث بأن أفضل جزء منه في أفضل شكل كان منطوقاً بداخلها! واعتبر الكثير من النقاد حتى في الغرب أن كلمات مثل تلك وغيرها طفحت بها رواية " عشيق الليدي تشارتلي " تجاوزاً .. بل عهراً .. لكنني الآن وبعد أن تحررت من خداع أبي دون أن أتحرر بالطبع من تأثير أبله هدى الرومانسي .. الآن لدي الشجاعة لأن أقول حتى هذا الذي لم تقوى الليدي تشارتلي على قوله: إن ذكر رجل محب ربما كان رمزاً لكل احتياجات إمرأته .. هل يستهويها في إلفها نغمته .. جبروته .. طغيانه ..

حنانه .. روحه الغازية .. أليس هذا ما تريد كل امرأة من رجلها ..؟ وأليس ذكره تجسيداً لتلك التركيبة المتناقضة ..؟ والدم الذي يتدفق في عروقه لينتفض أليس وارد القلب .. ينبع المشاعر الجميلة؟ وهذا ما أدركه في لياليي الساخنة على أسرة أحلام يقظتي .. أنه رسالة حب .. أغيب عن وعيي بملسه الناعم .. أحترق بلظى مخبوثه من الشوق إلى أعماقي .. أتظهر من نجاسة الحرمان برحيق شهده .. جبروته يجعل من رضوخي .. هواني .. نعمة تدفعني بعد كل غزوة .. أن أنهض .. لأتوضأ .. لأصلي ركعتي شكر لله أنه جعل مني أنثى مكتملة ..! ادعني أستعين بما جاء في الموسوعة النفسية للدكتور عبد المنعم حفني حول هذا الأمر.. يقول: " .. ولو تأملنا قضيب الرجل في ذاته سنجدته قبيحاً وكذلك فرج المرأة .. ولكنهما لما هبتا له من أجمل ما يكون .. كفرشاة الرسام .. شكلها وهي ملقاة شكل غبي ولكنها وهي ترسم وتلون عظيمة بكل المقاييس .. " وما لم يقله د.حفني أنه بالفعل قد لا تكون ثمة قيمة للفرشاة إن لم تكن بين أنامل محشودة بعبقرية الإبداع ..

يا إلهي .. ما أفضلني .. أتلك كلمات زينب بنت رضوان الحناوي .. الذي لم يكن شيخاً من شيوخ الدين لكن أهل القرية منحوه بعفوية اللقب لورعه ..! فماذا لو وقعت أوراقي تلك في أيدي آخرين غيرك..؟ وهل أتيت بجديد لايشغل النساء ..؟ منذ عدة سنوات .. فوجئت بزهرة تنزع سروال ابنها طارق وكان في الخامسة من عمره .. وتتمتم في سخرية حزينة:

– الواد باين عليه هيبقى زي أبوه .. حمامته صغيرة ..!

وحتى لو قلت إن هذا حال الكثير من الأمهات .. تأمل هذا القابع تحت سراويل أطفالهم ليطمئنوا على مستقبلهم .. أهذا يشفع لي لدى أي قاريء يمكن أن تقع أوراقي تلك بين يديه ..؟! ماذا سيظن بي..؟ فاجرة ..! وأصارك القبول .. كلماتي عن عضو الرجل ليست نبتة أوراقي تلك .. بل ليلة بعيدة اشتعل فيها جسدي ووجداني بسطور تلك القصة المذهلة .. قصة

"سانتياجو" لا أدري إن كانت لكاتبنا الرائع جابرييل جارسيا ماركيز أم لغيره أم إحدى أساطير أمريكا اللاتينية.. وخجلت أن أحكي لك عنها .. قصة تمور حول رجل غريب هبط على قرية .. لتنتشر سريعاً الحكايات عن قضيبه الضخم .. وعشق نساء القرية له .. مما أوغل صدور الرجال .. وعثر عليه ذات يوم مقتولاً ..! فأقامت له النساء مراسم دفن تليق بمكانته في قلوبهن.. وأطلق اسمه على القرية لتكبر وتكبر وتصيح مدينة سانتياجو عاصمة تشيلي ..! ليلتها شعرت وكأنني واحدة من نسوة "سانتياجو" .. أحببته وأدمني الحزن على موته .. وكتبت عدة عبارات مبعثرة حول ما يعنيه عضو الرجل للمرأة عاطفة وجسداً .. وحين هممت بكتابة رسالتي هذه .. وأخذت على نفسي عهداً ألا أخفي عنك شيئاً تذكرت عباراتي المبعثرة وبحثت عنها لأضمها إلى أوراقتي تلك .. في الوقت الذي لم أتمكن من كتابة سطر واحد بعد قراءتي لقصة "الشيخ شبيخة" ليوسف أدريس عن الأبله أو هكذا ظنه الناس فلم يجد الرجال حرجاً في أن يدخل بيوتهم .. رغم أن ملابسه عادة لا تغطي نصفه الأسفل ليتدلّى قضيبه الضخم .. فغشقته النساء .. إلا أنه كشف أسرار البيوت .. ليقتل .. ولم أتعاطف مع الشيخ شبيخة مثلما تعاطفت مع سانتياجو ..؟ لا أدري .. ربما لاحساسني أن سانتياجو كان رجلاً .. على النقيض من شيخ شبيخة "يوسف أدريس" .. الذي لم أشعر به سوى مجرد ذكر ..!

واعذرني إن أعدت التأكيد أن تلك الأنثى التي أحدثك عنها مكتملة فقط في أسرة الأحلام .. لكنها على أسرة الواقع مجهضة .. فرجلي ابن خالي .. أخي الذي تربي معي عجزت عن أن أحبه .. وعجز هو أن يتيح لي الفرصة كي أحبه .. وحتى لو كان يملك ذكر ثور .. لاقيمة له إن لم تكن الدماء التي تندفع فيه تندفق من قلب محب .. ليتندي في داخلي بشهد حب أعظم ..!

.. نعم .. هذا هو التطور الذي حدث في تشكيلي الأنثوي .. شاعرية

ضبي القمر وحدها اكتشفت أنها لا تكفي.. قد تنجح في تشكيل مخدع مخملي .. لكن مخمليته قد تصبح في ملمس الكفن إن لم يحترق بلسعة الشمس .. وكان ثمة اتفاقية صلح بين الجسد والروح دثرتني بينودها لأشعر بما شعر به جبران يوماً حين قال:

– كان لي مولد ثاني حين انعقد الحب بين روحي وجسدي فتزاوجا.

ألهدا حين غمرتني غزلياتك التي كانت تعزف على وتر تشكيلي المعدل .. استجبت لشارك غوايتك .. فقط .. في فراش أحلامي !!

– لكنني لم أكف عن مقاومتك .. وأحياناً تتقابني الرغبة في تحطيمك

.. كان ذلك في إحدى الندوات .. حين يحت برأي ينبثق من رؤيتي

القديمة لما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين الرجل والمرأة .. روحان

يتوحدان على فراش من أثير في مخدع فوق السحاب ..! فوجئت بك

تسفه ما أرى وتقول إن قيساً أصر على أن تكون مشاعره تجاه ليلى

أفلاطونية لأنه ربما كان يعاني من مشكلة جنسية .. وربما هذا حال

دعاة الحب الأفلاطوني ..؟ هل تعرف .. فكرت لعظمتها أن أنهض

وأزلزل كرسيك الذي تتربع عليه فوق المنصة .. فقط بتصحيح

معلومة لا أدري كيف لم تتبه إليها وأنت المتقظ الموسوعي .. هذا

الحب الروحي الذي يتكئ على المشاعر فقط من الجهل أن نسماه

أفلاطونياً .. فما كان مقصد صاحب الجمهورية سوى حب الفتیان..!

ولا أدري أي شيطان قام بتحويل مفهوم المصطلح مئة وثمانين درجة

ليعني الحب العذري..! لم أفعل .. ليس فقط حفاظاً على مكانتك

في القاعة خاصة وأنه كان يوجد العديد من مندوبي الصحف.. بل

لأنني امرأة .. إن خاضت بتنظيراتها في كيمياء النصف الأسفل

تشبت ذكور القاعة وخارج القاعة بتلك التنظيرات وصنعوا منها سلماً

يصعدون به إلى نافذة مخدعها ليتلصصوا على عالمها السري ..!!

وأظنك مثلهم تتوق إلى معرفة ماذا يدور في مخدعي .. وربما بعد أن

تعرف .. بعد أن أتعرى أمامك .. سوف توليني ظهرك وتقر .. لا أتذكر .. هل فرويد هو الذي قال هذه العبارة: الحب رغبة جنسية مؤجلة ..!! إن كان .. فما يعنيه بعبارته جلي .. بمجرد أن تشبع رغباتنا الجنسية ينتهي الحب .. فإن صدق .. وأظنه غير صادق .. لورأك أو أي رجل شرقي لأدخل تعديلاً على عبارته لتصبح: الحب رغبة في نزع سروال امرأة .. إن تحققت إنتهى .. فالروح التي تحكّمك روح قنّاص لا يعنيه سوى أن ينزع سروال فريسته .. فإن نجح ليس من المهم أن يكمل .. كان هشام ونحن صغار يفعلها .. حين كنا نتوجه إلى المصرف المجاور لحقلهم لنصطاد .. إن علقتم سمكة في صنارته يمضي لحظات يتأملها وهي "تلتعيط" في السنارة .. أظن أن نفس النظرة التي كانت تطل من عينيه وهو يعتلي جسر المصرف ذاتها نظرة الظفر التي قفزت في عينيه وهو يعتليني في الليلة السابعة من زواجنا .. وما عدت أراها الآن ..! وبعد ذلك يحرر السمكة من السنارة ليلقي بها في المصرف .. وسألته مرة:

— ليه يا هشام ..؟

فقال وهو منشغل بوضع طعم آخر في السنارة:

— مية المصرف وحشة والسمك اللي فيها متربي على الوساخة ..!

— طيب وليه بتصطادها ..!!

ضحك ولم يجب .. ربما لأنه لم يكن يقادر على معرفة خرائط أدغاله الذكورية التي تطفح منها تلك المشاعر المعقدة فتدفعه إلى أن ينظر السنارة عاليًا حين يهتز الغماز مبشرًا بوقوع الفريسة .. ثم يرمق فريسته وهي تتأفّز في ألم بتلك النظرة الغريبة ..!

هل شاهدت هيلي بن شو؟ .. تلك العروض الكوميديّة التي راجت في النصف الثاني من الثمانينيات .. ثمة مشهد ربما مر على المشاهدين دون أن يتوقفوا أمامه كثيرًا .. لكنني أعدته مرارًا .. لا لأضحك مثلما ضحكت

أختي فاطمة .. بل لأتأمله .. شاب يسير على شاطئ البحر .. رأى فتاة ترتدي تنورة واسعة وتجلس على مقعد مرتفع .. استرعى انتباهه جسدها البض .. فتوجه إلى حيث تجلس .. وتحت قدميها اضطجع .. فهتت الفتاة ما يرمي إليه .. اختلاس النظر إلى المناطق الخافية تحت التنورة .. فهضت بهدوء وخلعتها لتصبح شبه عارية .. ثم عادت إلى مقعدها .. فماذا كان رد فعله ؟ .. انصرف .. متعة هذا الرجل أن يتلصص .. يسرق .. يقتنص .. وحين أتاحت له الفتاة هذا بسهولة كانت هزيمة له .. ألم يكن هذا شعور فتى كولن ويلسون .. أعني رواية الحال إن لم تخني الذاكرة .. تلميذ الثانوية الذي مارس التتويج المغناطيسي مع زوجة معلم الموسيقى ليضاجعها .. آرثر .. هل كان هذا اسمه .. ؟ .. ربما .. وحين اكتشف أنها كانت على وعي تام حين ضاجعها .. شعر بالإحباط .. لأنه لم يفلح في سرقتها .. كل شيء تم برضاها .. ألسنت وهشام مثل هيلي وآرثر .. !

رأيته معي أكثر من مرة .. هشام أعني .. ما رأيك؟ أظنك ستقول: هذا الكائن لا يمكن أن يكون قد خرج من رحم امرأة ..!! هل شعرت إزاءه بالضائلة كذلك؟ .. إلا أنك في سريرة نفسك تحمد الله أن لديك ما تتفوق به عليه حين اخضعكما للمقارنة في موازين الأنثى السرية .. دماغك .. أعني علمك وثقافتك ورومانسيتك..!!

وما كان في طفولته هكذا .. كان طبيعياً .. كنا نركض و نتقاذز فوق أكوام القش قبل رفعها إلى السطوح لتقينا من أمطار الشتاء .. ونستخدمها كوقود لأفران الخبز .. ونتخفي بين أكياس القطن في لعبة الاستغماية خلال موسم الجمع .. كنت في ذلك الوقت بالمرحلة الابتدائية وكان هشام في الإعدادية .. إلا أنه روينا بتلك الطفرة التي تعرض لها جسمه في المرحلة الثانوية .. وفي ليلة كنت منطوية بين كراساتي أحل واجب الحساب .. شعرت بيد مرتعشة على الباب .. فتحت .. لأفاجأ به .. أتلك دقة قبضة هشام التي تزلزل المنزل! انتبهت .. الدموع تملأ عينيه .. خجلت أن أسأله .. فزعت إلى أمي:

– هشام بيعيط ..!!

تفزع إليه .. كان قد توارى في ظلام الدوار .. أختي فاطمة تهرع خلفنا بلمبة الجاز لتتير الطريق .. ننهته دلتنا إلى مكانه .. كان يدفن وجهه بين ساعديه المتكئين على قبة الفرن .. تتحول النههة إلى بكاء هستيري " هذا توصيفي الآن لهذا المشهد الذي مضى عليه أكثر من ثلاثة عقود .. تملكتي الدهشة .. أمثل هشام بيكي؟ ولم؟ لأن أباه نهره أمام أصحابه ..!! لكنني نسيت دهشتي وفوجئت بأنني أبكي لبكائه ..

لم أكن أتخيل في ذلك الزمن أو حتى الأزمنة التالية أن هشام هذا يمكن أن يكون زوجي!

بل بعد ذلك بعدة شهور لم أكن أتخيل أن يكون زوجاً لأي امرأة .. في ذلك

المساء الشتوي الذي عاد فيه بحمارة أبي محملاً بقفة دقيق من الطاحونة .. أنزل القفة في الحوش .. ثم ساق الحمارة إلى الدوار .. فهرعت تقيظاً لأوامر أبي حين كان يتأخر في الطاحونة لإعداد بعض الفول الحمص في شيكارة صغيرة .. وهبطت إلى الدوار لأضع علف الحمارة أمامها لتداهمني أنفاساً لاهثة .. تسمرت أقدامي في مكانها وعيناي على كتلة ضخمة وهي تندفع في موجات متلاحقة إلى الأمام و الخلف .. دققت النظر جيداً لأراه ملتجماً بمؤخرة الحمارة .. تجاوزت ذهولي سريعاً ونزعت أقدامي مستديرة إلى الخلف .. إلى غرفتي .. وأنا أحاول فك طلاسم المشهد العجيب! ولا أظن أنني تمكنت من رفع عيني في عينية بعد ذلك شهوراً عديدة .. والذي أذهلني .. أنه بدا طبيعياً .. حتى كان ذلك الصباح الصيفي .. مستكينة كعادتي في المرحاض .. وعيناي عالقتان نحو اللاشيء بالسقف الخشبي .. بينما طواحيني الداخلية تدور بعنف .. أجازتي الصيفية التي بدأت كيف أقضيها! وحليم الذي أبكاني في فيلم السهرة الذي شاهدناه الليلة الماضية بأغنيته " في يوم .. في شهر .. في سنة " وأمي التي نهرتني حين تساللت من البيت لألعب الحجلة مع صويحباتي في الحارة الصغيرة .. و.. أنتبه .. صوت خريشة في سقف المرحاض .. أحدد مصدره .. العرق الخشبي الذي يلتقي أعلاه الجدار بالسقف .. تتزايد الخريشة .. تتوحش .. أتخشب .. شيء ما ينفلت من الشق الفاصل ما بين العرق الخشبي والسقف .. صرخة تتعجر داخلي .. بل تخشب الجسد كله .. تلاشى .. حكمة زرعها الرعب في كياني .. لاشيء سوى عينين تتابعان أنزلاقه إلى أسفل .. الي أين ..؟ نحوي .. ليلدغني.. لألفظ أنفاسي وأنا هكذا .. سروالي معلق على مسمار خلف الباب بعيداً عن موطنه الذي حدهه أبي بصرامة .. هل سيجدني أهلي هكذا جثة عورتها مكشوفة ..؟ ليتها أمي هي التي أول من يكتشف جثتي.. وليس أحد من أولاد خالي الذين كثيراً ما يستخدمون مرحاضنا حين يكونون في البيت .. بل هشام فعلاً في البيت .. حين توجهت إلى المرحاض كان يتحدث مع أمي .. يا إلهي .. أيراني عارية ..؟ بلغت رأسه أرضية الحمام ..

رفعها فجأة .. هل شعر بي؟ معلمة العلوم قالت لنا إن الثعبان لا يرى .. بل يشعر .. عضلات بطنه شديدة الحساسية للاهتزازات التي تحدث في التربة بفعل تواجد الآخرين أو أصواتهم .. يتجه نحوي .. خطوة واحدة تفصله عني .. هل شعر بوجودي؟ كيف؟ حتى أنفاسي أكتمها .. كأنني أسأت الظن .. يتجه نحو الباب .. رأسه تتسل من الشق الفاصل مابين الباب وعتبه الرقيقة .. هل أحتمل بنجاتي بصرخة ..؟.. ربما عاد لينقض علي انتقاماً .. أتابعه عبر شق صغير في الباب .. يتجه نحو السلم الخشبي .. جذبت سروالي من فوق المسمار بأنامل مرتعشة .. ودفعت فيه ساقي حتى دون أن أغسل .. جذبت الباب بهدوء لتتعلق بغير قرار صرختي المؤجلة أيضاً بغير قرار .. تباغتني استدارته نحوي شاهراً رأسه المندفع من داخله إبرة رفيعة تتواثب في كل الاتجاهات .. تصيبني بالدوار .. في اللحظة التي تراجعت إلى الخلف لأحتمي بالمرحاض اندفع باب الحوش بقوة.. هشام وخلفه أمي وفاطمة .. أتطلع إليه بتوسل .. وما كان لديه وقت ليقرأ ما بعيني .. أشرت نحو الجدار .. وأنا أردد بحروف مرتجفة: تعبان .. تعبان يا هشام .. تعبان يامه ..

يحاول أن يبحث له عن منفذ في الحائط .. لكن قدم هشام الضخمة تنقض على رأسه لتسحب منه كل طرق النجاة .. يتفافز ذيله الممتد خلفه بحثاً في يأس عن وسيلة للهروب .. انحنى هشام بهدوء .. ليفاجأ بحركة مزدوجة قبض خلالها على رأسه بإحدى يديه وجذب الناب بيده الأخرى .. ثم رفع قدمه ولوح به في الهواء ..

– إيه يا زئيب .. خايفة منه ..؟ طيب إيه رأيك تخديه بنام معاك ..!

ارتجفت رعباً لعبارته .. وما استكان جسدي اطمئناناً حتى بعد أن هرس هشام رأس الثعبان بقدمه الضخمة .. بل إزداد فزعني حين قال لنا ابن خالي أن هذا الذي قتله أنثى وسيأتي وليفها ليلاً لينتقم .. هرعت إلى حضن أمي خشية أن يلتف الوليف المكلم بقتل أنثاه حول رقبتني وأنا نائمة .. طلبت من هشام أن ينام في منزلنا حتى إذا جاء وليف الحية قتله .. لكنني حين

كبرت وتزوجت .. رغم الخوف الساكن بداخلي من كل شعبان إلا أنني حلمت به ذات ليلة يتسلل إلى مخدعي من النافذة .. لم أصرخ حين رأيته .. بل ترقبت وصوله بشوق غامض .. يدنو.. وحين أصبح على بعد خطوة من سريري .. تطلع إلي بنظرة أيضاً غامضة .. تخلو يقيناً من الرغبة في الانتقام .. بل .. بل .. لا أدري .. يا إلهي .. كأنه أصدر لي أمراً بأن أنزع سروالي .. فعلت .. اقترب .. رفع رأسه .. لا يملكني ذلك الخوف الذي اعتصرني حين رأيته ينزل من شق سقف المرحاض .. بل خوف آخر .. أظنه ينتمي إلى نفس الخوف الذي جرد ساقي ليلة الدخلة من كل قدرة على الحركة .. يشهر نابه لأفاجأ بساقي ينفرجان ولا أثر فيهما للخوف .. أشعر به فوق ساقي رطيب أملس ناعم .. يغرس لساناً أصفر ذهبي كعود أراك بين ساقي وراح بطرفه الشوكي يمتص سموم رغبتي وينفث رحيق نشوتي حتى تخدر كل جسدي فراح يهتز في نبضات أليمة حادة الألم إلى درجة الإمتاع ليهتز كل كياني في نشوة ارتواء لم أعدها في كل ليالي زواجي .. ولا أحلامي بك .. فما أن مال جسدي للارتخاء .. حتى اندفع نابه في داخلي بغتة ليرتج السرير بزعيق متعتي فينتفض هشام بجواربي فزعاً :

– مالك يا زينب ..!

ألملم نفسي المبعثرة في خجل وأنا أتمتم في إعياء :

– الظاهر كابوس ..

وما كان كابوساً .. بل قصة أليفة رفعت "عالمي المجهول" التي قرأتها للمرة الأولى في الليلة السابقة استعداداً لمناقشتها في قصر ثقافة المنصورة..!

هل وقع اختيار الكاتبة على الشعبان ليروي أنوثة بطلتها العطشى لأنه رمز لذكر الرجل في التراث الإنساني ..؟ وهل تحت وطأة تأثير قصتها استدعيته أنا ليعوضني عن ليالي حرمانني والتي لا أطيق معالجتها بخيانة رجلي ..؟ وهل يشعر هشام بالحرمان مثلي؟؟ نعم.. يقينا .. بعد عدة شهور

من زواجنا شعرت بجسده أرقاً .. يتململ .. راقبته بهشمة .. بقلق .. راعني ما يحدث .. يده تتحرك برتابة إلى الأمام فالخلف .. ليزداد إيقاعها .. ثم تتوقف فجأة ليرتجف الجسد.. لتداهمني زهرة ضيق يفشل في قمعها بالوسادة .. أظنه كان يعيث بعضوه .. ظنني في تلك الليلة أصبح في الليالي التالية يقيناً .. ذات الشيء يتكرر .. حتى لو كان قد ضاجعني منذ ساعة أو دون الساعة .. وفي الصباح أتأمل بقعة من سوائل ذكورته فلتت من عالمه الذي يظنه سرياً على غطاء السرير .. وقبل الفجر يهرع إلى الحمام .. ليس فقط ليتطهر بل ويفسل سرواله .. وحين واجهته مرة:

هو أنا مش مراتك ولا إيه يا هشام..!

_ مالك .. فيه حاجة يازينب ؟_

_ شايفاك بتغسل هدومك .. آمال أنا بأعمل إيه!

وفي اضطراب صبي:

_ لأ .. أصل .. أصل ساعات ببقى موسوس من أن تكون نقطة بول نزلت فتحوطاً أغسل اللباس .. دا مش بياخد مني حاجة .. دقيقتين على الحوض ..!!

ألا يبدو الوضع غريباً ؟.. فراش يضمني .. زينب الحناوي .. القطفة الأولى لمحصول الجمال في هذا العالم " أليس هذا وصفك لي؟! " وهشام متولي .. الفجل الذي تكفي زفرته لإزالة عذرية نساء مدينة بأكملها .. ومع ذلك كلانا يتقلب على أسنة الحرمان ..!

هشام غيري .. كائن من خلية واحدة تمت تعبيتها من الصغر بالمرورث .. متسق مع ذاته .. حتى في مضاجعته لجمارة الشيخ وابنته .. تناقض لا يتوقف أمامه كثيراً .. مضاجعته للجمارة فعل تهتز له السموات السبع .. لكنه شائع في القرية .. في كل ريف العالم.. وهذا ما يقوله عالم اجتماع لا يحضرني الآن اسمه .. ٤٥٪ من ذكور الريف يضاجعون البهائم .. فغل يثير السخرية إن اكتشف أمر الفاعل .. لكنه لا أظن يستوجب النبذ أو

الطرد كالسرقة مثلاً.. كان خالي مثل أبي يوقظ كل أفراد أسرته فجراً ليصلوا .. تشبث هشام أكثر بتلك العادة بعد تأسيسه جمعية أحياء الرسول السنية.. ويبدو منزعجاً إن خذلته ولم أستيظم مثله .. كان هشام مثل أبيه وزوج عمته شهماً محبباً للخير .. وكريماً .. كان سعيداً أن يثمن أهل القرية سجاياه تلك .. وكنت أتطلع إليه بانبهار .. في إحدى العصاري الخريفية فوجدنا بصراخ ينطلق من قهوة أحمد الصعيدي غير البعيدة عن منزلنا .. وهشام يندفع بجسده الهائل داخل المنزل شاقاً طريقه في جوف الدوار ليسحب عرقاً خشبياً يتدلى من سقف الفرن ويعاود الانطلاق نحو الشارع .. هرعنا خلفه في فزع وأمي تلاحقه بشتائمها لتثنيه عن الخروج دون جدوى .. صعدنا إلى سطح المنزل لتتابع ما يجري .. لنفاجأ بهشام وعدلي الذي كان ممسكاً بمقعد محاطين بستة من شباب عائلة الطحش مسلحين بالعصي .. كان هشام يلوح بالعرق الخشبي الهائل في الفضاء لينهال على كتف هذا وذراع ذلك.. وعدلي يكتفي بتلقي الضربات الموجهة إليه بالمقعد .. لم تمض سوى دقائق حتى تبعثر الحصار وسقط اثنان من عائلة الطحش أرضاً.. وتقهقر الآخرون ليلاحقهم هشام .. لكن ثقل جسمه لم يمكنه من اللحاق بهم إلا واحد تعثر فسقط أرضاً وهم هشام بأن يهوى بالعرق الخشبي فوق ظهره .. لكنه تراجع ..!! حين انفضت المشاجرة .. هبطنا لاستقبالهما وأمي تولول خوفاً من أن يكون أحدهما قد أصابه شيئاً .. عدلي كان ممسكاً بذراعه .. ورغم أنه حاول أن يهون من الأمر .. إلا أن الضربة التي تلقاها بدت موجعة .. حتى أنه لم يكن يقوى على رفع يده لتصل إلى الوجه .. لتنفجر أمي في وجهه في غضب:

– واحنا مالنا ومال الخناقات!

فرد عدلي محتجاً:

– يعني أسيبهم يضربوا الراجل الغلبان وأقف أتفرج ..!

والمستهدف كان عم مسعود جارنا .. تشاجرابنه شوقي في جرن عائلة

الحلايبية مع أحد أبناء الطحش صباح ذلك اليوم حين كانا برفقة أولاد آخرين يلعبون الكرة .. انتقل خبر المشاجرة إلى عائلة الطحش بشكل معروف كما هي عادة كل أخبار البلدة .. قيل لهم أن شوقي شتم الطفل واصفاً أباه بأنه حرامي بهائم .. فاحتشدوا وهاجموا عم مسعود في المقهى وحين حاول عدلي أن يتدخل ضربه أيضاً .. رأى هشام ما يحدث وهو عائد من صلاة العشاء بمسجد المعصراوي .. فهرع إلى دارنا ليتسلح بشمروخه الذي يخبئه خلف القرن .. ويبدو أنه لم يجده فسحب العرق الخشبي .. ولم يأبه بغضب أمي .. حيث سأل متبرماً:

– أنت وديتي الشمروخ فين يا عمتي؟؟

– رميته في التربة يا روح عمك .. واللا أسيبه لغاية ماتقتلك قتيل .. وتودي نفسك في داهية .. مش بكفاية إلهي حصل لمحمد الغنام !!

كان اسمه يثير في النفوس الهلع .. لا يسير إلا ويندقيته أم روحين تتدلى من كتفه .. الكبار يستأجرونه لتصفية الحسابات بينهم .. يضع السم لبهائم هذا .. أو يغرق أرز ذلك .. أو يشعل النار في أجران القمح لحسابه هو .. إن تأخر بعض كبار المزارعين عن دفع الأتاوة التي يفرضها عليهم .. قبض عليه أكثر من مرة .. ودائماً يفرج عنه .. فلا أحد لديه الجرأة على الشهادة ضده .. حين يكون الحديث عنه في بيتنا أشعر بوجه هشام ينقبض .. الآن استطيع تفسير ما كان يجري في دواخله .. توحش محمد الغنام إهانة له .. هشام الشهم .. نصير الغلابة .. ومرة زعق في أمي:

– الناس تستاهل .. ما حدش قال له لأ مش دافع وراح بلغ فيه المركز .. مركز إيه يابن أخويا ..! مين إلهي مستغني عن روحه علشان يبلغ عنه .. الغنام بندقيته ما بتفارقوش وقلبه ميت ..

غادر هشام المنزل مأزوماً .. كأنه وزير داخلية يستهزيء به مجرم خطير .. كأن مروءته وشهامته وقوته في امتحان عصيب .. وإزادات عصبيته حين تناقلت القرية الصفحة القوية التي تلقاها الحاج بدير

الفضالي من الغنم أوقعته من على حماره .. كان الفضالي قد تأخر في دفع الأتاوة الشهرية عدة أيام .. وتطايير في الحقول والأزقة والمقاهي ما حدث في ذلك اليوم .. توجه هشام إلى مقهى سعد الأفيونجي الذي يسهر فيه الغنم ... وقف أمامه وصاح:

– اسمع يا غنم .. مفيش فلوس من الحاج بدير ولو قربت منه بعد النهاردة هخليك جرسه في البلد كلها ..!

ابتسم الغنم في هدوء وأخرج رزمة جنيهات وأخذ يحصيها .. كان تفسير أهل البلد لابتسامة الغنم أن رزمة النقود التي أخرجها من جيبه كانت الأتاوة الشهرية التي تلقاها من أمي حتى لا يعتدي على أحد من بناتها أو يتعرض للطاحونة بضرر .. داهمنا همس الحقيقة التي وارتها عنا أمنا صفة أشد إيلاماً من تلك التي تلقاها الحاج بدير.. وحين واجهناها وكان معنا هشام صفتنا وهي تنهه:

– خايفة عليكم .. دا راجل شراني ما بيخافش من ربنا .. ويعدين مين في البلد ما بيدفعش له ..!! أبوكم الله يرحمه كان بيدفع.. وخالكم كمان ..

كان عيني هشام حين سمع ذلك تحولنا إلى ترسانة أسلحة نووية في حالة تاهب قصوى .. انتفض متجهاً إلى الدوار ليشق طريقه إلى قراره المجهول وشمروخه في قبضته .. صعدنا إلى السطوح .. أنا في حلم يقظة .. تهليل القرية لموت الغنم على أيدي ابن خالي .. وأمي بهواجس الأخبار القاتمة التي ستداهمنا بأن الغنم قتل هشام بدت البلدة في هذا النهار الصيفي القاتظ مكفنة في هدوء مخيف .. إلى أن انتفضت الشوارع التي تتدلي من منطقة المقابر حيث يتوارى مقهى سعد الأفيونجي بزعيق .. ليس تهليلاً .. هل خاب حلم يقظتي وصدقت هواجس أمي ..! لكن سرعان ما انجلت الأصوات..

– الغنم إتقتل يا بلد .. قتله هشام الغازولي!

جسدي ينتفض .. مم؟ لا أدري .. الخوف .. هشام ابن خالتي قاتل! .. لكن سرعان ما انتابتنى رغبة في أن أزعرذ .. خوفاً من أمي ألجم لساني .. من يدلني على عنوان إذاعة الشعب التي كنا نجلس بجوارها الساعة مساء في حوش الدار ومعنا هشام نترقب سيرة عنترة ابن شداد .. لأكاتبهم .. أود أن أقول لهم إن عنترة لم يموت .. إنه يعيش في قرية المعصرة دقهلية ويتخفى في اسم هشام .

لكن أمي تصرخ:

_ يا داهية سودة .. وديت نفسك في داهية يا هشام يا ابن متولي علسان راجل ما يستهلش!

تهبط سريعاً لترتدي طرحتها وتلقي بجسدها النحيل في قرار الشارع فتصطدم بعدي الذي كان يركض وخالي وزوجة خالي .. وغيرهم .. كثيرون يركضون في اتجاه قهوة سعد الأفينونجي ..

نريض وأختي فاطمة خلف النافذة .. نتلقف الأخبار من اللاهثين في الشوارع .. خالي وعدي اصطحبا هشام إلى دوار العمدة .. أرسل العمدة خفراءه ليحضروا الأفينونجي وبعض مرتادي القهوة .. وانفرد بهم وهشام في المندرة الرئيسية فترة قبل أن يهاتف مركز شرطة بلقاس .. قوة من المركز جاءت وألقت القبض على هشام .. سررنا خالي بما عزم عليه العمدة .. ما حدث كان دفاعاً عن النفس بشهادة الأفينونجي وأكثر من خمسة أشخاص تواجدوا في القهوة في ذلك الوقت .. كان هشام ماراً أمام القهوة فإذا بالغنام يناديه:

_ واد يا هشام .. قول لأمك لو ما بعنتش المعلوم الليلة .. هتلاقي الطاحونة الصبح كومة تراب ..

فرد هشام عليه:

_ معلوم إيه يا عم محمد؟

فرد الغنام باستهزاء:

– إللي بيني وبين أمك أسرار ما لكش صالح بها .. ما عليك غير تبليغ
الرسالة .

فرد هشام ..

– إذا كنت تقصد فلوس مفيش وإللي تقدر عليه عمله ..

نهض الغنام وصفع هشام على وجهه فدفعه هشام بعيداً ليرتطم بجدار
حائط المقهى ليخلع الغنام بندقيته محاولاً تصويبها نحو هشام فمد هشام
يده منتزِعاً شومة كانت في قبضة سعيد السحرتي الذي كان متواجداً في
المقهى في ذلك الوقت لينهال بها على رأس الغنام.. تفاعلت القرية مع الرواية
التي اختلقها العمدة وباركها ضابط المباحث بالمركز .. كان الجميع
يدرك أن هذا الذي قيل في المركز والنيابة والمحكمة ليست الحقيقة ..
لكنهم توحدوا مع أكاذيب العمدة التي ردها الشهود تعاطفاً مع هشام الذي
خلصهم من الغنام .. لينتهي الحادث بأنه حالة دفاع عن النفس .. ويفرح عن
ابن خالي ليعود إلى القرية في موكب إمتد ثلاثة كيلومترات من السيارات
والجرارات الزراعية .. وكان في استقباله العمدة حيث احتضنه محبباً:

– أهلا ببطل المعصرة ..

وكانت أيام مجدي في المدرسة .. فالجميع من مدرسين ومدرسات
وظلابا و طالبات يعرفون أن البطل الذي قهر الغنام ابن خالي ..

لم يمض الغنام .. لكنه قضى سنواته الأخيرة ملازماً بيته بعدما أصيب
بشلل نصفي بسبب الضربات التي تلقاها على رأسه وظهره من هشام
بشمروخه المخيف ..

ألهذا ارتضيت به زوجاً ..! درعاً يحمي الأنثى الواهنة داخلي ..! تقلص
ترددي بقبول هشام زوجاً في ذلك الضحى الشتوي الذي قامت فيه القيامة
بمدرج كلية الآداب جامعة المنصورة .. يومها ألح هشام على أن يرافقتني

إلى الجامعة .. كان لدي محاضرة في الشعر الجاهلي .. كان هشام يظن أن الشعر الجاهلي فقط هو عنتره المقيم به ومعلقته وفروسيته .. جلسنا في نهاية المدرج .. تأخر الدكتور وبدأ أنه لن يأتي .. بدأ هشام يتحدثني عن عمله الجديد في المديرية العامة للزراعة ومحية الفلاحين له .. هذا ما كان يعني هشام دائماً .. أن يمثل قيمة في أعين الناس حتى لو اقتضى ذلك أن يقدم مرتبه والدعم الشهري الذي يقدمه أبوه له قروضاً كان يعرف أن أكثرها لن يرد .. لكن ما كان يعنيه أن يقرأ هذا في عيون الناس ..

– شهم وكريم وصاحب مروءة ..

بل.. لا تكفي لغة العيون .. عليهم أن يفصحوا .. وكانوا يفصحون .. وكان هذا اكسير الحياة له .. وكنت أعرف شيفرة سعادته فأسأله عن الحرب التي خاضها ضد شباب عائلة الطحش لماذا كان يوجه ضربات الخشبة الهائلة التي انتزعها من سقف القرن إلى الأجناب والأرجل .. فيرد ضاحكاً:

– مش بكفاية مصيبة محمد الغنام .. الراجل انشل وكان ممكن يموت ..

فيضحك وأضحك سعيدة بضحكه وأسأل:

– هو صحيح كان دفاع عن النفس ..؟

– نفس إيه يا بنت عمتي ..! الراجل يا ولداه اتفاجيء بي واقف قدامه .. سادد عنه حتى نسمة الهوا إللي هيتتفسها .. والله وهو بيخلع البندقية عشان يضريني حسيت إن إيديه بترتعش .. وأول هبدة شمروخ على دماغه لاقبته وقع ما حطش منطوق .. ما سبتوش .. الغنام كان وهم .. يخوف ولية غلبانة .. راجل في حاله ..!

ولم أشأ أن أصدمه في بطله عنتره بن شداد أنه بنى أسطوره هكذا كما بناها الغنام .. كان يضرب الضعيف فيرتعب الأقوياء ليصبح الإجهاز عليهم سهلاً .. هذا ما قاله عنتره نفسه .. فضلت ألا أكاشف هشام لأنه

سيصيح محتجاً: هتقارني الغنام بعنترة ..!؟ فارس بني عبس ماكانش يهमे
قوي أو ضعيف!

كانت علاقة هشام بعنترة بنيت على المسلسل الإذاعي الذي كانت
تبثه إذاعة الشعب في السابعة مساء كل يوم .. وقبلها بنصف ساعة على
الأقل نلتف حول راكية النار التي يغذيها هشام أو عدلي بالقلاويح لتبث
في أوصالنا الدفاء .. ويجوارنا المذياع الخشبي الكبير يعتلي بروراً خشبياً
مثباً في أحد طرفيه بالحائط ويتكيء عند الطرف الثاني على قائمين
خشبيين مغروسين في الأرض الأسمنتية وتوضع بينهما بطارية المذياع
التي يحملها هشام أمامه على ظهر الحمامة ليشحنتها كل اسبوعين .. ولم
يفكر هشام بالطبع أن يتعمق أكثر مثلاً في معرفة الدلالات الاجتماعية
والسياسية لعشق عنترة العبد لابنة عمه عبلة الحرة .. سلية الحسب والنسب
.. ولم أشأ أن أشرح له أن الجهر برغبته في الزواج من عبلة كان الرصاصة
الأولى في الحرب ضد العبودية .. وأن يتساوى البشر بغض النظر عن اللون
أو المرتبة الاجتماعية .. لم أشأ أن أقول له هذا .. لأن ما يعنيه في قصة عنترة
.. ليس مغزى حبه لعبلة .. بل أنه صرع الأسود والفرسان ..

واكتفيت بالضحك تعاطفاً مع قهقهته وهو يروي موقعة الغنام .. إلا أن
ضحكنا على ما يبدو لم يرق البعض حيث فوجئت بشاب ينهال علي ضرباً
بشومة قصيرة وآخرون يحيطون بهشام الذي ما عبأ بضرياتهم .. بل كان
رد فعله اللارادي أن جذبني إلى صدره بيده اليسرى .. رافعاً يمينه ليستقبل
ضرياتهم الموجهة لي .. مرق المشهد سريعاً أمام أعيننا الذاهلة قبل أن
يختفوا عن الأعين ليهمس بعض الطلبة في خوف ..

– دول من الجماعة الإسلامية .. بيعملوا كده مع أي ولد وينت بيشفوهم
قاعدين مع بعض.

لم يكن هشام يرى فيما يفعلونه ديناً أو سياسة .. بل غناماً بعث من جديد
.. وكان يردد كلما تطرق الحديث إلى تلك الجماعات:

– شايفة يا زينب .. حتى التبرعات بيجمعوها زي ما كان الغنام بيحصل
الأتاوات .. إللي ما يدفعش ليلته سوده ..!!

لكن أحاديث هشام عنهم لم تعبر كثيراً عما بداخله من إحساس
بالانكسار .. مثله .. عنتره بن شداد يتعرض للضرب وخطيبته وفي مدرج
الكلية أمام مئات الطلاب .. كان يشعر بأن كبرياءه لن يعاود شموخه إلا
بالانتقام .. كيف..؟ إنهم ليسوا محمد الغنام أو أولاد الطحش .. بل تنظيمات
أرهقت الدولة وقتلت رئيسها يوم ٦ أكتوبر.. ذكرى عرسه التاريخي ..
وكنت أظن أن الزواج كفيل بأن يدفع به في ميدان آخر .. أنا والأولاد الذين
سيأتون وضغوط الحياة .. لكنني فوجئت به يتبدل .. أطلق لحيته .. وقصر
جلابيبه التي يرتديها في البيت وخلال وجوده في القرية يطيل مكوثه في
المسجد خاصة بعد صلاة العشاء .. هذا الذي يطلقون عليه مسجد السنين
.. وأظن أن البداية كانت من هناك .. وجدوا فيه ما ينقصهم: القوة والثراء!
جميعهم فقراء وبلا أنياب! ضم هشام إليهم سيزيدهم مكانة وقوة وقبولاً
في القرية .. وأظنهم كانوا يعزفون على وتر المروءة والشهامة في داخله ..
بل أنني سمعت بعد ذلك أحدهم وهو يقول له حين كانوا مجتمعين في غرفة
الاستقبال في منزلنا أن انضمامه للجماعة يشبه دخول عثمان بن عفان وعمر
بن الخطاب للإسلام .. الأول أثرى الدعوة للدين الجديد بماله والثاني رفع من
شأن المسلمين بقوته.. لذا لم يكن غريباً أن يصبح هشام بعد ذلك خطيب
مسجد السنين.. وما كان مجرد مسجد يصلي فيه هو وأصدقائه .. بل مقرراً
فعالياً لجمعيتهم المعروفة باسم جمعية أحياء الرسول ..

سألته في توجس:

– مش دي الجمعية السنية إللي فروعها منتشرة في كل مصر..؟

أجاب في شيء من الرضا:

– وأنا وأعوذ بالله من كلمة أنا .. رئيس فرع المعصرة .. رئيس فرع
المحافظة وبتزكية من رئيس فرع المركز أبلغني بالقرار النهاردة .

– بس دول متطرفين!

– متطرفين إيه يا دكتور! احنا لا بتوع ضرب ولا اغتيالات ولا سياسة ..
هدف الجمعية حث الناس على العودة لسنة الحبيب المصطفى ..

..ومن من المسلمين يأبى أن يتمسك بسنة الحبيب المصطفى!! لكن
بأي عين ينظر هشام ورفاقه إلى سنة الحبيب المصطفى!! وكثيرة هي
الأحداث التي انبثقت من رحم عالم هشام وجماعته والتي تؤكد أن قلتي
كان مبرراً ..

في إحدى الأمسيات وجدني منهمكة وبتأثر شديد في مشاهدة فيلم ..
كان فيلم بين الأطلال .. ودون أن يلتفت إلى الشاشة مد يده ليفلق التلفاز
وهو يتمتم:

– هذا يلهيك عن ذكر الله ..

كظلمت غيظي واكتفيت بملاحقته بنظرة دهشى .. ثم توجهت إلى
فراشي محاولة أن أستسلم للنوم .. لكن مشاهد الفيلم ظلت تتراقص أمام
عيني إلى ما بعد الفجر حين هز كتفي لأستيقظ ليكسب ثواب حثي على
صلاة الفجر .. لكنه بعد أقل من أسبوع كرر ذات الشيء ..

كنت أتابع الاجتياح الإسرائيلي لمدينة جنين .. فأمسك بالريموت وأغلق
التلفاز ..

صححت في انفعال:

– إيه إلهي إنت بتعمله دا ياهشام؟!

.. فقال يهدوء وهو يجلس قبالي:

– مش أفضل إنك تقومي تقراي شوية قرآن ..

– عارف أنا كنت باتفرج على آيه ..!! المذايح إلهي بييرتكبها الإسرائيليين

في فلسطين .. ولا دي كمان حرام؟

– عاوزاني أجاويك بصراحة .. أبوه التلفزيون حرام ..

رمقته في صمت للحظات .. كنت أتدبر الأمر في سريرتي .. وانتهيت أنه من الأفضل أن أدير معه حواراً عاقلاً وبهدوء ..

– شوف يا شيخ هشام .. زمان لما الإسرائيليين ارتكبوا مذبحه دير ياسين ماحدث من العالم حس بحاجة .. ماكانش فيه تليفزيون وأقمار صناعية .. دلوقتى الأمور اختلفت .. في أوروبا جماعات كثيرة بيعملوا مظاهرات ضد إسرائيل بسبب مذابحها ضد الفلسطينيين وإللى بيعملوا مظاهرات ضد التليفزيون .. يبقى إزاي هو حرام!

– زي الخمر ممكن يبقى بعضها مفيد.. لكن كثيرها مضر تبقى حرام.

– ما هو الكثير من كل حاجة مضر .. يعني لو أنا شربت عشرين إزازه ميه ممكن أموت .. يبقى نحرم الميه ..!! وبعدين التليفزيون زي الفلوس ممكن الراجل يصرفها على واحدة ست مش مراته علشان عاوز منها حاجة يبقى حرام عليه .. وممكن يصرفها في بناء المدارس والمساجد والصدقات يبقى بيستخدمها في الحلال ..

– الكلية وأساتذتها العلمانيين الكفرة هيفسدوا دينك .. ما هي الجماعات بتاعة أوروبا إللى إنت بتتكلمى عليها دلوقتى شوية شيوعيين ملاحدة .. ومش بيتظاهروا حباً في المسلمين .. إنما كراهية في إسرائيل وعدوتهم أمريكا ..

واستطرد وهو ينهض متوجهاً إلى الحمام:

– رينا يهديك يا دكتورة ..!!

لكنه فاجأني خلال اجتماعه برهاق الجمعية بمنزلنا بهشام آخر.. أحدهم كان يقترح أن تبدأ الجماعة حملة في مدن وقرى المركز لحث الناس على مقاطعة التليفزيون .. وفوجئت بهشام يواجههم: التليفزيون مثل الجنيه هو في حد ذاته لا حلال ولا حرام .. ممكن ندفعه رشوة فنرتكب حرمة وممكن نحطه في جيب واحد غلبان فنأتى خيراً يجازينا الله عليه .. المشكلة مش

هي التليفزيون .. المشكلة هي التي بيتقدم في التليفزيون .. ما يعضب الله
يمكن أن نتجنبه .. وما يصب في خدمة الدين نشاهده .. " وحين قال أحدهم
أنه درءا للشبهات ينبغي تحريم التليفزيون .. نفس ما قاله هشام لي من قبل
رد زوجي بنفس ما قلته له :

– يا أخي مذبحه دير ياسين وكفر قاسم ومذابح اليهود في فلسطين
ما حدثش سمع عنها في العالم .. ولهذا صدق الناس أكاذيب اليهود
.. الآن الفضائيات تقبل كل شيء وعلى الهواء .. لهذا يتعاطف الرأي
العام العالمي مع قضايانا في كل مكان ..

وحاول الشيخ صالح نائب هشام والذي على ما يبدو يتطلع إلى رئاسة
الجمعية تأليب الأعضاء ضده :

– ألا تلاحظون .. الشيخ هشام أصبح يستخدم لغة العلمانيين الكفرة ..
الرأي العام العالمي ! .. وإيه إلهي عمله الرأي العام العالمي لإخواننا في
العراق وفلسطين وأفغانستان ..؟

إلا أن عضواً آخر نبههم إلى ما يغيب عنهم :

– لو حررنا التليفزيون لأغضب هذا الجماعة في شربين ..

– دي أمور لا تشغل بال الجماعة في شربين .. التليفزيون والنقاب والأغاني
.. المهم ما نذكرش النظام بشر ..!

ويحاول الشيخ صالح إرهابهم :

– وكيف نفتي ولمشايعنا الأجراء أحكام في كل هذه الأمور ..؟ وما
يعنيه بشيوخهم الأجراء الألباني ومحمد بن عثيمين وابن باز .. وما يفتي
به هؤلاء لا يخضع للنقاش ..

كم أشفق على هذا الصبي .. يحاول أن يبدو أمامي شيخاً واثقاً من
فتاويه .. لكن ها أنا أنجح في اقتحام تلافيف رأسه لأصارع هذيانهم الذي
يرضيه به .. ربما فقط للاحتفاظ بمقعد الرئاسة ..

هل يروقتني هذا !! كان يروقتني أكثر أن تكون شخصية زوجي هشام الغزولي على نفس القدر من عنفوان بدنه .. وتخصب دائماً بفكر آخر غير هذا الفكر الأسود الذي يشق طريقه دائماً إلى الذاكرة دون أن يمر على معامل التحليل والتمحيص والتأمل في الرأس .. وكثيراً ما حاولت أن ألقى في طريقه بكتب الشيخ محمد عبده والشيخ محمود شلتوت والغزالي وجاد الحق وكل علمائنا الذين رأوا الإسلام "صح" لكنه كان يعزف عنهم .. ربما لشعوره بأن مثله .. رئيس فرع جمعية أحباء الرسول في المعصرة يخون الجمعية وبالتالي الإسلام ذاته إن أنصت إلى ما يقوله هؤلاء الذين تأمروا على الدين الحنيف !! هذا ما قاله لي مرة حين حدثته عن دعوة الشيخ محمد عبده إلى تنقيح السنة النبوية الشريفة مما لحق بها من شنوذ الآراء !! لكن هل مجابهتي له تتبع من داخل مسلمة مستتيرة حقاً ؟ أم أنها وساوسي السرية التي تطول وجود الإله ذاته .. تلك الوسواس التي يستعصي علي أن أواجه بها زوجي .. فأتحايل بمناقشته من خلال ما نقول وربما نزعم أنها الرؤى الدينية المستتيرة !! ..

وما كان يحيرني غيابه نهار الاثنين من كل أسبوع .. لم يكن يذهب إلى العمل .. اتصلوا به مرة ليسألوه عن دفتر فقد .. ماذا يمكن أن تفكر الأنثى حيال أمر مثل هذا ؟.. أن لديه زوجة أخرى هناك ؟.. !!

سألته حين عاد من غيبته الفامضة :

_ الشغل اتصل بك يا هشام وبيسأل عن دفتر ضايع .. هو إنت مارحتش النهاردة .. !!

لكنني وجدت أنه من الأفضل أن أكون أكثر وضوحاً : قل لي يا هشام .. إنت بتروح فين كل يوم اتين .. !!

تطلع إلي بنظرة ضيق لا تخلو من الحيرة .. أظنه كان يفكر في إجابة على هذا السؤال : هل من الإسلام أن يصارح الرجل إمرأته بكل أموره ؟.. يبدو أنه لم ينته إلى إجابة أو انتهى إلى أنني ناقصة عقل ودين ليس من

الحكمة أن أعرف ما يخفيه..

لكنني عرفت .. مكالمة من مجهول:

_ الشيخ هشام موجود؟

_ لأ.. مين عاوزه ؟

_ أخوان له في الإسلام .. وقوليله الأخوة في الدين يحافظوا على بعض ..

مش يشتغلوا جواسيس لحساب حكومة كافرة .. باختصار .. قوليله
بلاش مشوار الاتنين ..

أفزعتني المكالمة .. ترقبت وصوله بأضلع يمزقها القلق .. وحين جاء
وقبل أن يتوجه إلى غرفة النوم لاحقته ..

_ مين دول اللي بيتهموك بالتجسس عليهم ..؟ رمقني في قلق .. لكنه

قلق المتعطش لإجابة عن أسئلة بداخله .. لافلق رجل محاصر بأسئلة

زوجته .. أخبرته بأمر المكالمة .. فألقى ببدنه على الفراش منهمكة

أنامله في العبث بلحيته ولم يجب.. لكنني اقتربت من الحقيقة خطوة

حين أخبرتني زميلة في الجامعة أن قوة من أمن الدولة بشريين داهمت

منزل عمها لتلقي القبض على ابنه .. أمير الجماعة الإسلامية في قرية

السماحية.. هل يعمل هشام جاسوساً لمباحث أمن الدولة في شريين..؟

هل ألقى عنتره بسيفه جانباً حين عجز عن الانتقام من أعدائه ولجأ

إلى كتابة التقارير ضدهم ..؟ وكان كلما ورد اسم شريين على

لسان رفاقه حين يجتمعون في منزلنا كنت أظن أنهم يقصدون فرع

الجمعية في تلك المدينة.. يا لسذاجتي ..وما كان لسريرتي أن تهدأ

قبل أن أعرف ماذا يخفي زوجي عني .. وعرفت .. مكالمة تلقاها ..

ودفعني فضولي إلى أن أتصت على مايقال من عدة غرفة النوم ..

_ الجماعة واضح إنهم مش ناويين يجيبوها البر .. بكرة في صلاة

الجمعة هيدخلوا البلد في موكب كبير .. إنت عارف طريقتهم .. هم

يقصدوا بكده إن يكون المشهد مهيب علشان يؤثروا في أهل البلد

.. استعراض عضلات .. عاوزين يخوفوا الكبار .. العمدة ورجالته وشيخ
البلد والأعيان إللي هياخدوا منهم فلوس تبرعات .. والإبهار .. إبهار
الأولاد الصغيرين في الإعدادية والثانوية والجامعة علشان ينضموا
لهم .. هدفهم السيطرة على الجامع الكبير .. هينزلوا الخطيب من
على المنبر وواحد منهم.. أمير الجماعة في البلد إللي اختاروه يصعد
في حمايتهم ويلقي الخطبة .. المسألة دي بيعملوها في جوامع كثيرة
ويتجح .. مش عاوزينها تتجح في المعصرة .. هيبقي شكلكم وحش
قوي لو حققوا غرضهم .. فاهمني يا شيخ هشام!

– على جنتي يا رأفت بيه ..!

لم تكن تلك لغة الشيخ هشام قائد جمعية أحياء الرسول .. والتي يحرص
عليها على الأقل أمام أعضاء جماعته .. بل لغة فتوة المعصرة الذي يتحين
لحظة الانتقام من هؤلاء الذين بعثروا كبرياء الرجل حين أوسعوه وابنة
عمته ضريباً في مدرج كلية الآداب .. وما كنت في حاجة إلى كثير من
الذكاء لأعرف أن الذي هاتفه ضابط من أمن الدولة بمدينة شربين .. الذين
يخوضون ما يشبه معركة بقاء مع جماعة الأخوان المسلمين وجماعات
أخرى متطرفة تتناثر بؤها في مساجد ومدارس المحافظة والجامعة... ..

ياه .. ما أشد تحولك يا هشام .. لا أشعر بأي تعاطف مع الجماعات
أو الإخوان المسلمين .. أنت تكن الكراهية لهم بعد علاقة مدرج كلية
الآداب .. وأنا.. لأنني أراهم يجذبون مصر من حواف القرن العشرين ليثبتوها
بحراب العنف في مركز أشد السنوات العثمانية حلقة .. لكن أن تكون
تلك هي الوسيلة لمجابهتهم ..!

واجهته:

– أيه إللي إنت بتعملوا ده..؟ مرشد للحكومة يا هشام ..؟

– إخرسي

لم يكن قراراً .. بل تأديباً .. صفعة هائلة على وجهي .. ألقبت بي خارج

الحياة .. كم من الوقت .. لا أدري .. أنتبه .. زهرة زوجة عدلي تضع قطعة
من الثلج على وجهي .. ببطء شديد تعاودني أحداث اللحظات الأخيرة ..
لتشرخني بعنف ..

يطل شبحه الضئيل من باب الغرفة .. تتسحب زوجة أخيه وهي تدعونا
بالهداية ..

لا أقوى على النظر نحوه .. يكابد ليتكلم .. أعرفه طفلاً في مواقف مثل
تلك .. تفر كل القواميس من بين شفثيه . هل يعتذر ..؟ لا أظن .. وهل ما
لديهم من الأثر يوجب الزوج أن يعتذر لزوجته إن أخطأ في حقها ..؟ ..

– إسمعي يا زينب .. إنت اشترطت علشان نتجوز إنني أسيبك تكلمي
تعليمك .. مش اليسانس بس .. الماجستير وكمان الدكتوراه ..
وافقت .. وتشتغلي .. وبرضه وافقت رغم إن ده بيسبب لي حرج مع
الجماعة .. إنت برضه سيبيللي جزء من الحرية في حياتي الخاصة ..
عيناى مثبتان نحو اللاشيء في سقف الغرفة .. ربما أبحث عن مستقبلي
.. حاول أن يتكلم أكثر .. ذكرني بعلقة الجامعة .. لم يتحرك جفن لي ..
انسحب .. وما أظنه عاد أو عاد ولم أنتبه .!!

لازمت غرفتي .. لكنني كنت أشعر بهذا الذي يجري خارجها .. كلما
رن جرس البوابة الخارجية اختلس النظر إلى الطارق .. شباب من القرية ،
ومن خارجها .. بعضهم يقودهم هشام إلى أطراف الحديقة الخلفية بعيداً عن
أي عيون فضولية ترمقهم من سطوح ومنازل الجيران .. بينما آخرون يكتفي
بالحديث معهم بضع دقائق أمام البوابة . وينصرفون .. في منتصف الليل
جاء .. حاول أن يبدو طبيعياً ..

– السلام عليكم

لكنني لم أساعده ..

– عاملة أيه دلوقتي ..؟

أشيع بوجهي .. تطلع إلي في صمت عاجز لبضع لحظات ثم غادر..
لم أشعر بالبوابة الخارجية تفتح فجراً .. لم يتوجه إلى مسجد السنين
ليصلي .. أظن أن هذا كان مخطئاً .. أن يعبثوا جهودهم لمعركة صلاة
الجمعة .. قبل أن يغادر عرج علي ليتكرر المشهد :
_ مش عاوزة حاجة من بره ..!

لم أرد .. لكنني تابعت بقلق خطاه وعدلي وآخرين من العائلة وغير العائلة
من خلف الستارة وهم يغادرون .. هذه أول مواجهة له مع الجماعات بعد
علاقة المنصورة .. هل يشعر بالخوف ؟.. يحاول أن يبتسم .. لكن عيناي
تلتقطان خلسة تقاسيم وجه آخر غير وجه هشام الذي أعرفه .. لا أظنه
الخوف .. هشام لا يعرف الخوف .. بل القلق .. ربما من أن يخسر معركة يرى
فيها فرصته لاستعادة هيئته أمام نفسه وزوجته .. مثل هشام .. أخدود من
المذلة ينشق بداخله إن أهين أمام امرأة ويتسع الأخدود إن أهينت المرأة وما
قدر أن يحميها .. ويصبح الأخدود محيطاً يهدر بأموال المذلة حين تكون
تلك المرأة زوجته وابنة عمته .. عرضه وشرفه ولحمه ودمه .. إنها معركة
كبرياء هشام وليس صراعاً دينياً كما يظن الناس .. زمان في مناسبة
مثل تلك نصعد إلى السطوح .. كانت السطوح المقصورة التي نشاهد منها
الأحداث .. وما كانت مثل الآن .. سقف كانت من الخشب والفاب تعلوه
أكوام من الخشب في الغالب .. وأحياناً الحطب .. وقود الخبيز .. هدم هشام
وعدلي البيت وأعادا تشييده بالحديد المسلح وألغيا الدوار القديم وأقاما
في الخلف حديقة فسيحة .. وأوكلا مهمة تربية المواشي إلى شركائهما
من المزارعين في بيوتهم الطينية .. وما عاد أحد في حاجة إلى القش
والحطب .. حيث اختفت الأفران القديمة .. ومثل سكان البندر .. الجميع ..
حتى الفلاحون يشترون الخبز من الفرن الآلي الذي أنشأته عائلة أولاد جاد
الله منذ عدة سنوات ..

تجذبني أصوات تهليل وزعيق سيارات تتصاعد بقوة .. أهرع إلى النافذة ..

الأصوات تتدفق من السكة الزراعية ..

يخفق قلبي خوفاً .. ما زالت الوسواس القديمة ترسب داخلي .. إن مات هشام .. من سيحميني؟! .. حتى لو كان علي باطل!! حتى لو كنت .. لو كنت أكرهه ..؟؟ أهذا أنا.. زينب المعيدة بكلية الآداب والطالبة بالماجستير هي التي تقول هذا .. تماماً .. مثلما كانت أمي تقول؟ أمي ما زالت بداخلي .. بل كل جداتي .. ربما ينفرن على الأسرة من رجالهن .. لكن موت الرجل موت لها !.. وما الفرق بيننا وهؤلاء النسوة من الهنديات في الأزمنة البعيدة .. إن مات الزوج تساق الزوجة إلى المحرقة طوعاً أو كرهاً .. فلا حياة لإمرأة بعد انقضاء حياة رجلها!

أهرع إلى السطوح .. كان محتشداً بنسوة العائلة والجيران .. كل السطوح كانت تحتشد بالنساء والأطفال الذين منعهم أهاليهم من التوجه إلى المسجد خوفاً عليهم .. ننتبه .. هتافات تدنو من ناحية بلقاس .. حشود من الجلاليب البيضاء القصيرة بالكاد تتجاوز الركب وعمائم تتدلى منها الذوائب حتى الأكتاف ويدخل الموكب تزحف ببطء عدة سيارات نصف نقل مكدسة بالشباب .. ترتج الأرض بهتافاتهم .. يرتج قلبي بالخوف .. أبعث نداءً مشرباً بكل ما عرفته الأنثى عبر تاريخها من الضعف .. الهوان .. العجبن .. إلى هشام .. في قلب المسجد الكبير: انسحب .. تع إلى .. تلك ليست معركتك .. بل معركة الحكومة .. فلماذا أنت وحدك ..! أنامل حانية تمسح دموعه سألت على خدي.

– خائفة ..!

كانت زهرة زوجة عدلي ..

– مش عارفة ..

– ما تخافيش .. ربنا هينصر عدلي وهشام عليهم ، أصبحت معركة

عدلي وهشام .. هشام جرجر العائلة إلى ميدان معركة ليست معركتهم

– أصلك ما شو فتيش .. عدلي بعث جاب اخواتي واخواتي جابوا أصحابهم

ونساييهم .. وأصحاب هشام طول الليل بيتجمعوا .. وأنا سمعت أن العمدة
جمع الخفر وكمان فيه رجاله جايبين من المركز..!!
— ما أظنش أن الحكومة هتدخل .. هتسيبهم يخلصوا على بعض..
تمتمت بصوت مخنوق:

— ربنا يستر!!

تداهمنا فوضى الأصوات عبر ميكروفونات المسجد الكبير .. زعيق ..
صراخ .. ارتطامات .. أحاول أن ألتقط رائحة هشام في تلك الفوضى .. أخفق
.. فجأة تهدأ الأصوات .. يرتفع صوت المؤذن بالأذان .. ليس الشيخ برهان
مؤذن الجامع .. أهو مؤذنههم ؟.. هل استولوا على الجامع .. وحسموا المعركة
لصالحهم ؟.. وهشام .. أين هو الآن .. هل .. هل قتل ..؟ لو ثمة قتلى لألفوا
الصلاة .. أظن ذلك .. كيف تقام صلاة على جث قتل؟؟
لكنه يفاجئني .. يفاجئنا ..

— الحمد لله الذي جعلنا أمة وسطاً

تشهق زهرة بفرح:

— دا الشيخ هشام .. هو إللي بيخطب ..؟ يبقى .. ياما إنت كريم يارب .. والله
ما بطلت دعا طول الليل إن ربنا ينصرهم .. وأولاد المراكيب فين ..؟
— وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما .. فإن بغت إحداهما
على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيئ إلى أمر الله.

هدأ الداخل قليلاً .. أين هم .. أولاد المراكيب كما أسمتهم زهرة..؟
يسلم هشام ويؤذن المؤذن للصلاة .. الدقائق تحبو كأنها سكين ينغرس
في اللحم .. عقب التسليم في ختام الصلاة تداهمنا موجة أخرى من
الأصوات المتشابكة .. تتباعد عن المسجد .. وما عاد مكبر الصوت
قادرًا على التقاطها .. لكنها تقترب من السكة الزراعية .. غبار كثيف
بصعوبة تخترقه أعيننا .. الجلابيب البيضاء القصيرة متسخة وبعضها ممزق

.. بل آخرين بلا جلاليب .. بناطيل بيضاء وصدرية .. الكل يركض على
السكة الزراعية في اتجاه مدينة بلقاس أو يحاول اللحاق بالسيارات نصف
النقل التي أتوا بها.. وفي المؤخرة يتجلى تفسيراً للمشهد .. هشام وآخرون
يلاحقونهم بالعصي والشماريخ .. كان كلما رفع شمروخه إرتجت الأرض
بصراخه: يا كفرة يا ولاد الكلب .. كان ذات الصراخ الذي أطلقه وهو
يتلقى ضرباتهم قبل أن تصلني في مدرج كلية الآداب منذ خمس سنوات ..
لحظتها شعرت بارتياح لأن بؤرة المذلة بداخله تذوب .. لكن ماذا عن بؤرة
المذلة بداخلي ؟

أهرع إلى شرنقتي .. تفاجئتني طرقاته على الباب ..

_ السلام عليكم ..

لكنني أشحت بوجهي بعيداً

_ إذا حيتهم بتحية فحيوا بأفضل منها أو ردوها ..!

أود أن أقذفه بالأباجورة في وجهه .. سلامه كرسي في الكلوب .. إن
لم أرد .. ربما طعنني في إيماني .. كيف لمؤمن لا يرد تحية الإسلام إن
ألقيت عليه ..! من طرف خفي رأيت وجهه .. إنه ذات الوجه الذي طل علينا به
حين أفرج عنه بعد قضية محمد الغنام .. نظرة الفارس المظفر.. لكن ثمة
كدمات.. أقمع في مشقة سؤالا ملتاعاً بداخلي:

_ إنت عامل أيه ؟! اتعورت! وأخيراً لاشيء سوى الصمت ..

_ أنا نازل أتعدى مع الجماعة تحت .. احنا عندنا ضيوف كتير ولازم
نضايقهم كويس ..

ماذا يتعين علي أن أفعل ..؟ فعلته معي لا ينبغي أن تطوى هكذا .. حتى
إن اتخذت قراراً بهذا فدواخلي لن تستجيب .. أشعر بأنني ممزقة.. ما كان
هذا المسار الذي أريد .. زوجي الذي أشعر بارتياح لأن بؤرة المذلة بداخله
تذوب أخشى أن يجبرني لكي أتعيد معه في هيكل الدم ..

طريقة على الباب تنزعني من قلبي الموجع ..

— إيه يا دكتورة .. مش هاتنزلي تباركي لجوزك .. (دول ضربوهم ضرب

..

— اتفضللي يازهرة ..

أهي دعوة لمعرفة التفاصيل ؟.. توقي لمعرفة كيف سحق فارس بني عبس

أعداءه .. ؟ بالشتات الداخل!

— دخلوا الجامع .. سبعة منهم حاولوا يقربوا من المنبر .. اتنين قدام

وتلاثة وراهم .. واحد على اليمين والثاني على الشمال وإللي في الوسط

الأمير إللي اختاروه للجماعة في البلد ووراه اتنين حراسة .. وكان

الملعوب إن الإيتين إللي قدام ينزلوا خطيب الأوقاف ويطلع مكانه

أميرهم في حراسة الأربعة إللي وراهم .. الشيخ هشام اتفض وشد

الإيتين إللي قدام من طوقهم ووقفهم .. وشال الأمير بتاعهم وحدفه

على المصلين .. طلعا عصي صغيرة من تحت جلايبهم .. وحاولوا

يضربوه .. مالحقوش .. عدلي واخواتي وشباب الجمعية هاجوا فيهم

.. الشيخ هشام كان بيضريهم بغل .. بيقولوا فسح واحد منهم .. كان

رايح يضربه بشومة على رأسه من ورا .. لولا واحد من أعضاء الجمعية

نبهه .. جوزك أدور ومسك الراجل من رقبتة لغاية مازرز في إيدته ..

ورهرط منه على الأرض .. الشيخ هشام ساب رقبتة ومسك رجليه عاوز

يفسحها والراجل يا ولداه بيصرخ من الوجع .. وما سابوش هشام إلا

لما شاف كبيرهم الشيخ علي أمير الجماعة في المركز .. هجم

عليه هشام .. لكن شباب الجماعة حوطوا الشيخ علي عشان يجموه ..

الشيخ هشام بيقولوا كان عامل زي الثور الهايج يضرب يمين وشمال

ومش حاسس بالعصيان والجنازير إللي نازله على بدته .. ولما قرب

من كبيرهم .. الراجل صرخ في جماعته عشان يهديهم .. وقال للشيخ

هشام بمسكنة: يا شيخ هشام دا بيت الله وإللي إنت بتعمله دا ما

يتفقد مع دين الله .. فرد هشام: وإللي أنتوا بتعملوه ده دين الله!..
تهجموا على المساجد وتروعوا المسلمين ..!9 اسمع يا شيخ علي .. أنا
فاهمكم كويس .. المعصرة لأ .. وجوامعها لأ ..

فرد الشيخ علي بنفس المسكنة:

_ بتمنعنا من الصلاة في المسجد يا شيخ هشام ؟

هشام الظاهر إنه إتأثر .. وقف مكانه .. بس صرخ فيه:

_ وإللي جاي يصلي جايب معاه عصي وجنازير يا شيخ علي!99

وبعدين زار فيه زي القضنفر:

زي ما قلت لك مالكوش صلاة في الجامع ..

والتاني إدور وهو مدلدل رأسه وقال:

_ خلاص يا شيخ هشام .. هنصلي بره الجامع ووراك .. مش إنت برضه
الإمام ..! ومش احنا إللي هنحاسبك .. إنما صاحب الجامع والدين هو
إللي بيحاسب ..

كانت زهرة تحكي على طريقة أفلام المغامرات المفرمة بها ووجدت
في قصة هشام من روح المغامرة ما يجعلها تحكي بانفعال وتكابد لتغيير
لكنتها لتتلاءم مع الخلفية الشعرية لكل متحدث..

_ عدلي واخواتي قفلوا الأبواب من جوه وبدأوا يصلوا .. لكن الظاهر
الجماعة بره ماكنوش بيصلوا .. بيخططوا .. وينظموا أنفسهم .. بمجرد
ما سمعوا هشام بيسلم .. هاجموا الأبواب .. عدلي قال: من الأفضل فتح
باب واحد علشان ما يدخلوش كلهم مرة واحدة ونصطادهم .. وفعلاً
فتحوا باب واحد كان يا دوب يسمح بدخول أربعة أو خمسة .. وبدأت
المعركة .. أخوياً شوقي دشدش لوحده دماغ ثلاثة .. والشيخ هشام
ومعاه مجموعة من الجمعية نزلوا وسطهم زي التيران الهايجة .. يقولوا
الشيخ علي اتعور تعويرة جامدة وشالوه في عريية من عربياتهم..

قلت .. مكابدة لتطهير سؤالي من قلق الداخل:

_ وهو؟

غمزت بعينها وهي تهمس في لؤم:

_ خائفة عليه ..؟

_ هشام ابن خالي

_ بس؟ وكمان جوزك وحببيك .. هشام طيب ويحبك .. روقي يا

دكتورة

_ ما قلتيش هو عامل إيه؟

_ كويس .. شوية وجع في الدراعين بس

_ والكدمات إللي في وشه ..؟

_ كدمات إيه ..!! دي حاجة بسيطة على آخر النهار هتروح ..

هل أفرح لفرحه ..؟ وصفعه لي .. لثم .. وماذا بعد ..؟ هل تجتر الجماعة هزيمتها في صمت ..؟ لا أظن .. بل أصبح طوق الخطر بعد أحداث المسجد الكبير يضيق حولنا أكثر .. فإن كان الداخل قد نأى عن هشام .. ول أدري إن كان ذلك صحيحاً أم لا .. فماذا عن ابنتنا شادن .. ألا يمكن أن يلجأوا إلى خطفها إنتقاماً .. أو .. أو .. قتلها!.. يا إلهي .. فإن كانت روجي قد إنفرطت من عالم هشام بعد صفعه لي فماذا عن شادن ..؟ منها أستمد وجودي .. قبلها حملت مرتين وأجهضت .. وبعدها لم يحدث أي حمل .. الأطباء قالوا إن أمومتي توقفت .. لم يهزني ذلك .. هشام هو الذي يعلم بدسته من الصبية كي يضع في يد كل منهم سيف عنثرة بن شداد .. ما أروع أن تكون المرأة أما لطفل من الرجل الذي تحب .. وتلك إحدى نقائص مخدعي .. فما أحببت هشام .. نعم .. قلت إنني قبلت بوجودي معه تحت سقف واحد .. لأنه الدرع المضمون لحمائتي .. زينب ابنة عمته .. هذا ما غرسته أمي بداخلي .. وقلت أيضاً إن إيماني به زوجاً إزداد بعد علاقة مدرج الآداب .. لكنني مارأيت فيه

أبدأ الفارس الذي شكله إبراهيم ناجي بداخلي وحلمت به دوماً ..

أَيْنَ مِنْ عَيْنِي حَبِيبٌ سَاحِرٌ
فِيهِ نَيْلٌ وَجَلَالٌ وَحَيَاءٌ
وَإِثْقُ الْخُطْوَةِ يَمْشِي مَلِكًا
ظَالِمُ الْحُسْنِ شَهِي الْكِبْرِيَاءِ
عَبَقُ السُّحْرِ كَأَنْفَاسِ الرَّبِيِّ
سَاهِمُ الطَّرْفِ كَأَحْلَامِ الْمَسَاءِ
مُشْرِقُ الْمَلْعَةِ فِي مَمْلَقِهِ
لُغَةُ النُّورِ وَتَغْيِيرُ السَّمَاءِ

حتى حين اكتشفت .. ولا أبالغ .. أن التوحد الروحي بيني وبين رجلي قد يبلغ مداه إن اتكيت الجسدان على فراش حب يصبح فيه النبع والنهر والمصب الشيء ذاته .. لم يكن هشام أبداً هذا الرجل .. ربما من جانبه لأنني ابنة عمته .. وأشعوره أن بداخلي سياجاً منيعاً يحول دون حتى أن نتماس، فما بالك بأورجازم يصهرنا في أتون نشوته .. وربما كانت اللبنة الأولى في هذا السياج تلك التي استقرت في أعماق تربتي في ذاك المساء البعيد بدوار منزلنا .. فالعضو الذي يلج حمارة لا يمكن أن أرتضاه رسالة حب تخترقتني حتى تمس قرار أنوثتي السحيق ..

مرة سألتني أختي فاطمة ..

_ الشيخ هشام عامل أيه معاك ؟..

وكانها تسأل عن آخر غير هشام ابن عمتهما ..

_ في إيه يا فاطمة ..؟

– في إيه يا فاطمة..!! هتلاثمي على أختك!! الجماعة السنينين دولا
بيبقوا وحوش في أوضة النوم.. وعاوزين ستاتهم يبقوا غوازي .. جبتي
له بدلة رقص ..؟

– ئيه هو إنت عندك بدلة رقص ..!

– هو إللي جايبها ..!

– دا بس إللي بيخليك تموتي فيه ..؟

– إيه يا زينب!.. هو إنت فاهماني حمارة ..! مدحت إنسان حنين ويحبني
ويجعل إللي يقدر عليه عاشان يرضيني ولولا كده ما كنتش أتجاوب
معاه –

وأسأل في غياب:

– يعني إيه!!

– يعني بسبب حنيته وحبه لي بوصل مرتين .. وممكن ثلاثة وأربعة..!

قلت في غيظ:

– بسبب حنيته ولا بدلة الرقص ..!

– إنت فاهمه مدحت أيه..! عادي زي الناس .. عشر دقائق أو ربع ساعة
بالكثير .. وكمان لو أنا مش بحبه كنت هاألبس له بدلة رقص ليه..!

وما تجح خيالي أن يسوقني أبداً إلى غرفة نوم أرتدي فيها بدلة رقص وأهز
وسطي وأردافي وهشام مضجع على السرير يقضم تفاحة استعداداً لالتهامي بعد
التهامها .. وحتى لو غادر مشهده خلف حمارة أبي الذاكرة إلى الأبد فما أظن
أن جسدي يمكن أن يهجع تحت جسده في شوق .. قد تشتعل النار تحت جلدي
خاصة إن استدعيتك .. لكن الأمر يبدو لي وكأنني أمارس العادة السرية .. ولا
أعرف هذا الذي تتحدث عنه فاطمة .. الرعشة مرة أو مرتين أو ثلاث ..! إلا من
خلال قراءاتي التي مثل غزلياتك تعذبني .. رجلي توقف نموه .. أخشى أن يكون
قد إرتد إلى الخلف .. النموذج الوحيد للرومانسية عنده عنتره و عيلة .. والقراءات

الوحيدة التي أقبل عليها الألباني.. ابن باز .. ابن عثيمين .. وربما اضطراراً بعد انضمامه لجمعية أحياء الرسول فرع المعصرة ثم إمارته لها .. وحتى لا يتهم بأنه لا يسير على سنة الرسول الذي يحب .. أفرط في إطلاق لحيته .. لتوحش وتلتهم تقاسيم وجهه.. وما أحببتها أبداً .. وأحمد الله أنه كان لا يميل كثيراً إلى القبلات .. رغم توحش توقي إليها .. لكن يقينا ليس من فوهة بئر تقذفني بخليط لا يطاق من روائح البصل والفسيح .. رجل يأكل الأرز بالفسيح وأحياناً بالبطيخ .. ومدمن كرشة وممبار .. ماذا يمكن أن تطرح أمعاؤه من روائح !.. " .. وكنت أستريح إلى هذا الوضع الذي تطلقون عليه في أدبياتكم الساخرة "الفرنساوي" .. ربما لأسباب دينية أجهلها !.. وكثيراً ما يتزع إليه .. هل لأنه الوضع الذي كان شائعاً بين يهود خيبر فرأى بعض المسلمين أننا أولى به منهم؟! وربما لأنه شعر بالتجربة أنه الوضع الملائم لعضو يعاني من الضالة .. وإن كنت لم ألحظ عليه ما يتم أنه يدرك أن لديه مشكلة في الحجم .. ورغم أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمارس الجنس وجهاً لوجه تأكيداً لانسانيته .. حيث يتلظى النفس بالنفس والصدر بالصدر والمشاعر بالمشاعر فيتوهج بؤبؤ عينيه بشعاع ظفر يخصب عينها بأزاهير الخدر .. إلا أنني مع هشام أفر من المواجهة رغم احتشادها بكل ما ترغب الأنثى من مشاعر.. لأمنحه ظهري كلما هم بي.. وأحمد الله أنه كان يلتزم بسنة نبيينا الكريم فلا يأتيني إلا في العتمة حتى لا يرى عورتى ولا أرى عورته .. " لا أدري هل هذه بالفعل سنة عن الرسول ! " وأظنه قد صام أياماً كثيرة تكفيراً عن المرات التي أتاني فيها في بدايات الزواج نهاراً .. أو تحت أشعة الأباجورة الحمراء!

ومرة اتهمني بأنني ثرثارة .. فابتسمت ولم أعلق .. ذلك أنني كنت قد انتهيت لتوي من قراءة كتاب عن الأمثال الشعبية عند الفرنسيين وكان من بينها مثلاً يقول: القبلة هي الطريقة الوحيدة لتمنع فم المرأة من الثرثرة !.. لكن من شفاه من؟ .. يقينا من شفاه حبيب !.. وأنا حرمت من الحب .. فمن الطبيعي أن أكون ثرثارة !..

الجميلة والوحش .. ألم يكن هذا تعليقك حين رأيت هشام معي أول مرة..؟ تعبيرك هذا يذكرني بتلك الليلة الغريبة التي يسمونها بليلة الدخلة! منذ الصباح الباكر .. وجسدي مثل لوح زجاج هش ترمح على سطحه خيول .. حوافرها كأسنة الرماح .. تحاصرني أم سعيدة الماشطة بقطع من الحلوى المقرزة .. تلتطمعها على جسدي لتجذب ما به من شعر وربما معه شتات روحي بوحشية .. وهي تردد غير آبهة بتمززي:

– يا بختك يا هشام يا ابن زكية ..!!

" حين قلت هذا لأختي فاطمة بعد خمس سنوات ونحن نجتري ذكريات تلك الأيام انعقد حاجباها في دهشة وهي تصيح:

– أم سعيدة..!! دي نتشة صوابها زي عضة العصفورة .. أنا رحلت لكوافيرات أشكال وألوان بعد كده ما لقيتش صواب في حنية صوابها..!

أهكذا كانت أم سعيدة الماشطة ..؟ إذن فالمشكلة في أنا .. ورغم مرور أكثر من عشرين عامًا على ذلك النهار ما زلت أشعر بأن شيئًا ما في جوفني يصيبني بالفتيان .. ويستعصي على الخروج..؟ هل الأمر يتعلق بهشام!؟ حتى حين أرادت الماشطة أن تعبر عن إعجابها بجسدي رددت: يا بختك يا هشام .. وكانني قطعة بنيونة برائحة النعناع سيلتهمها .. لا أظن أن هذا مقصد أم سعيدة .. فرجل مثل هشام لا تفتح شهيته بقطعة بنيونة .. بل بلحم أنثى أي أنثى أنا أو حمارة زوج عمته .. لحم منقوب يدفع فيه عموده ليؤكد صحة المثل الإنجليزي ..

It,s pole and hole

يسمونه هشام هجمة .. في ضخامته كما رأيت يبدو مثل كينج كونج .. هل رأيت هذا الفيلم؟ أو تمثال فرعونى عملاق .. لكنه ليس أملس كتماثيل الفراعين .. بشرته النحاسية مزئنة تحت طبقة من الشعر الأسود الكثيف

.. تهتز الأرض تحت قدميه .. مساء .. في الفرح .. اقتربت الغازية من الكوشة .. دنت بوجهها منه .. توقف جسدها عن الانثناء والانحناء والالتواء .. أغمضت عينيها .. كأن زمنها توقف عند حافة تلك اللحظة .. ماذا تفعل تلك الغازية؟ .. أظنها كانت تحترق بنشوة في لظى أنفاسه ..

وأنا أيضًا احترقت .. لكن ليس بنشوة .. بل بفزع .. شيء ما آخر غير لظى أنفاسه يقلصني عندما ..

تلتحم ساقاي .. تقبضان .. ترتجفان .. عرق غزير ينضح من وجهه وهو يحاول أن يشق كتلة ساقبي بكفه الخشنة .. يحاول ملاطفتي .. أكابد في الاستجابة .. تتفرج ساقاي بصعوبة .. أكابد لأدشطر عن شيء ما بذاكرتي .. حمارة أبي التي توحدت معها في مصير واحد رسمه لكلانا ابن خالي .. تتراجع ساقاي عن الانفراج .. عامود مدحت بياغتني .. تعاود الانغلاق .. يدها ترتعشان .. رعشة يديه تتسل في مسامي احسامًا بالدهشة .. أمثل هشام في حضرة النساء يرتعش ١٩ .. تخبو أشياء كثيرة في عينيه .. ولا شيء تبقى سوى التعاسة .. لا أدري ماذا يحدث .. ولا تفسير لسوائل لزجة بين فخذي .. وأين هذا العمود الضخم الذي تخيلته يشقني في ليالي رعي منذ أن خطبني ..! كنت أظن أن لديه ما ليس لرجل ٩.. مدحت زوج فاطمة يملك قوامًا عاديًا وربما دون العادي .. قال مرة إن وزنه ٧٤ كيلو جرامًا .. وينتصب تحت سرته هذا العمود المارد .. فماذا يخفي رجلي .. هشام الهجمة ..! ٩.. لم أدرك إلا شيئًا ضئيلاً ضل في أمصقاع نصفي الأسفل .. رغم أنه كان صلبًا بما يكفي لأن ينفذ بداخلي .. فماذا حدث ..! ٩.. يستكين بجواربي .. يخفي وجهه بيديه .. أه يا أمي: لماذا تفعلين بي هذا؟ .. أما من رجل غيره؟ .. أكان هذا حالي لو كان رجلي السويسسي الأسمر؟ ١٩.. لماذا هشام يا أمي .. ١٩..

— ابن خالك إللي هيراعيك ويخاف عليك .. إنتم ما لكوش اخوات صبيان يحموكم .. هشام طيب وباشمههندس قد الدنيا .. وما تتسيش خالك وأولاده كانوا ستر وغطا علينا بعد ما أبوك توفى .. ولما ستك ماتت

خالك ما حرمنيش من الميراث .. زي ما الناس بتعمل في البلد مع البنات .. اداني حقي بالتمام والكمال ..

أعرف كل هذا .. ولهذا رضخت لإرادتك يا أمي .. رفضي لهشام كان يعني أنني بيدي أسطر شهادة وفاة خالي متولي الذي راعانا بعد وفاة أبي .. كان دائماً يردد: "بيت العدل هو آخره كل بنت .. فليه لزوم التعليم والمصاريف ووجع الدماغ!

ورغم ذلك لم يجسد آراءه تلك سلوكاً معاكساً لأحلام أمي .. أن ترى في يدي ويد فاعلمة شهادة كبيرة .. لم يسع لزواج عدلي من أم كلثوم .. حين لاحت عروساً أخرى لا ينبغي أن يفوتها .. "زهرة" إحدى جميلات عائلة الكحلوي والتي سترث سبعة فدادين .. وأمي لم تغضب لذلك لأنه في ذات الوقت تقدم لأم كلثوم تاجر الموبيليا الثري .. إذا أنا وحدي التي يتعين علي ارضاء خالي وأمي بالقبول بهشام .. ولا أكره هشام ابن الخال .. لكنني في صحاري فراشي احترق بلوغة أسئلة الندم: أأشتري رضا خالي وأمي بقبول الزواج من هشام ..؟ أيكفي أن يكون هشام طيباً وشهماً وباشمهندس لتسلموني إليه كي .. كي يدهسني كل ليلة .. دون حرث؟ وهل سيبقى في رمق حياة لليالٍ أخرى غير الليلة الأولى!

وهذا الذي تصلب بين فخذي في ليلتي الأولى؟ ما عدت أشعر به .. هل أتهد في ارتياح؟ ماذا به .. بي؟ أأكون أنا المعيوبة داخلي مسدود؟ .. فضيحة فوزية الدندراوي تتكرر في عائلة رضوان الحناوي! الدكتور محمود المعداوي .. ابن صباح بائعة الكرشة .. أمه كانت فرحة به حتى الجنون .. انجازها الهائل الذي فشلت في تحقيقه البيوت الكبيرة .. الدكتور محمود ليس كأي "ضنى" .. طرقت بابها الخاطبات يعرضن عرائس من كبرى العائلات في البلد وضواحيها .. لكن عينها كانت على عائلة الدندراوي .. الأغنى والأعرق .. ابنتهم فوزية .. بعثت أم سمير الخاطبة تتحسس المواقف خلف البوابات الضخمة لسراية الدندراوي فجاء الرد إيجاباً .. وتم الزفاف

لتعود العروس إلى سراية أبيها كما ذهبت .. عذراء .. الصدمة هائلة .. أفقدت كلاهما توازنه .. ليثرثر بما أصبح المادة الأكثر إثارة للتداول في البيوت والمقاهي والحقول لأسابيع عديدة .. هو يقول إنه فوجيء بها " مسدودة " ..! وهي ترد .. " هو إلهي مش عارف " .. قصة الدكتور محمود وفوزية حاولت أن أنزعها من ذاكرتي وهشام يحملني بين يديه إلى غرفة نومنا الجديدة دون جدوى لتتورم بها وسادتي أرقاً يزداد نوحاً لي مع كل محاولة فاشلة له لاخترافي .. أمر مثل هذا إن لم يتم يحطم قلوب الأمهات .. فرغم فرحة أمي بحصولي على ليسانس الآداب وأختي فاطمة على بكالوريوس تجارة .. إلا أن مشروعها لم يكن ليكتمل أبداً بدون أن تسوقنا إلى بيت العدل عذارى .. تسيل دماؤنا على رؤوس الأَشهاد .. معلنة أن بكارتنا لم تخدم من قبل ولو بنظرة رجل ..!

أنسل إلى الحمام .. أباعد بين فخذي .. أتحمس بإصبعي في حذر تقبي! أجده ..؟.. أهذا قليلاً .. ليستفحل عذابي مجدداً مع طرقة الباب كل صباح ..
وسؤال أمي الموجه:

– هه .. طمئيني يابنتي .. أزغرد؟

ولا أجيب .. لتتساب دموعي في صمت:

– لسه برضه ..؟

لا شيء سوى دعة أحاول قمعها دون جدوى

– آمال باين عليه مستحمي وبيضحك ..؟

أنتبه .. مع كل طرقة على الباب يهرع إلى الحمام .. يبيل شعره وملابسه .. أريد أن يوحى بأنه ..؟.. بالعقل الذكور .. هل تعرف؟ أظن أن هذا سبب الفشل .. احساسه أنه في امتحان .. وعسير .. الرسوب فيه نهاية لكيونته ..؟
لكم أنتم أيها الرجال جديرون بالشفقة ..
تتمم فاطمة في استغراب:

– هشام ..! دا البنات بيخافوا يسلموا عليه أحسن يحبلوا ..!

ثم تهمس في أذني ضاحكة وربما في زهو:

– جوزي عملها من أول ليلة ..

أتوق لأحاديث فاطمة .. أمامها يتواري شيء من خجلي .. كانت هي الأقرب لي من أي أنثى .. حتى من أمي .. كان يدثرنا دفء فراش واحد منذ صغرنا خاصة بعد زواج خديجة وأم كلثوم .. حاولت أن أجذبها إلى عالمي .. ثومة والعنديلبيروز .. كابدت لاقناعها أن تشاركني مكمني بين أكوام القش فوق السطوح لنشدو سوياً تراتيل ناجي والشابي .. لكنها لاتطبق .. وسريعاً ما تفر إلى عالمها .. المطبخ وفرن الخبز والمشلت والحلويات .. تلك أصبحت متعتها .. في البداية .. أن تشارك أمي في الطهي وصناعة الحلويات والمربيات والفتير .. وسرعان ما سعت إلى أن تكون وحيدة في المطبخ .. لم تحب .. يذهلني ذلك .. أنثى لا تحب .. لكنها ماكرة .. كانت تدخر كل طاقتها العاطفية والجنسية لمن يدق الباب ويروقها .. ولقد راقها بالفعل مدحت .. محاسب في ديوان المحافظة بكفر الشيخ .. ينتمي إلى أسرة ميسورة .. وكأنه توأمها .. لا يميل إلى الأغاني والشعر .. ومثلها لا يقرأ .. لكن إن كانت هي مصنعاً ينتج أفخر الأطعمة والحلويات .. فهو مستهلك لهم لمنتجاتها دون أن يؤثر ذلك على رشاقتها .. وكان يفسر ذلك بأن نشاط أعضاء جسمه اللاإرادي يستهلك سعرات حرارية أكثر من أي إنسان آخر .. ويردد أيضاً أنه حريص على أن يتوجه إلى عمله الذي يبتعد عن بيته بخمسة كيلومترات مشياً .. ولا يسمح للسيارة بأن تستعبده .. لكن تنافر التوجهات لم يشطر الحب الذي وحدني وفاطمة .. وأتذكر أنها وليست أمي من تلقى أول صيحة فرح لأنوثتي في تلك الليلة البعيدة .. حين أيقظتها في هلع:

– فاطمة .. فاطمة .. اصحي.

– إيه .. مالك يا زينب ..!

– دم .. دم بين أفخاذي ..!

وكنت قد شعرت بسائل ساخن يبيل ما بين فخذي فأسرعت إلى
المرحاض وتحسست فرجي بيدي .. لأعود إلى الغرفة لأوقظها!! ادارت
شريط اللبية السهاري .. وأزاحت جلبابي إلى أعلى وتحسست المكان..
ثم نهضت .. وجذبت من السحارة الخشبية الصغيرة التي تضم ملابسنا
مندبلاً.. وقالت بهدوء: روجي دورة المياه واغسلي كويس وبعدين حطي
المنديل ده تحت اللباس ..! هدوؤها بقدر ما بث الطمأنينة في نفسي إلا أنه
أثار استغرابي:

– هو فيه إيه يا فاطمة ..!

– أما ترجعي من دورة المياه هأقولك ..

عدت سريعاً .. تمددت بجوارها لتضمنني في حنو وهي تقبلني في رأسي
ثم همست:

– إنت دلوقتي ماعدتيش طفلة .. الدم دا اسمه الدورة الشهرية.. ببدا
ينزل على البنات لما توصل سن ١٢ أو ١٣ سنة .. بس هو نزل علي بدري..
كان عندي ١١ سنة ..

وأتذكر أننا أمضينا الليلة نتهامس ولم يغمض لنا جفن .. ساعدنا على
ذلك أن اليوم التالي كان عطلة بمناسبة المولد النبوي ..
والآن هل أجد لدى فاطمة المفتاح الذي أهك به طلاس جسدي في بلاط
ذكورة هشام ..:

سألتها .. فقالت وهي تستعيد ذكرياتها:

– كل البنات بيتقوا مرعوبين .. برضه المنظر مش هين .. أنا كان
هيغمى علي لما مدحت خلع هدومه ووقف قدامي عامل زي طرزان
وأنا قاعدة بالطرحة على السرير لاحول ولا قوة .. وسيادته واقف عمال
يلعب بيه وفرحان بنفسه .. ساعتها لو كنت فايفة شوية لقمتم ولطشته
كام قلم .. دا بدل ما يخذني في حضنه ويهديني .. بس تعرفي .. بعد

كده حسيت إنه معاه حق يفرح بنفسه .. مش كده وبس.. وكمان أنا
أفرح بيه .. أصل الجنس ده نعمة من عند ربنا .. وياغلبها إللي جوزها
مالوش .. بقوللك إيه يا زوبا ماجايز المشكلة فيك ؟

نعم .. لا أدري .. الخوف..؟ وريها الرفض .. مسامي إن هم باعتلائي
تتقبض.. تتغلق .. أشعر بجسدي يتشنج ..

الرفض .. ربما هو الرفض .. شبحة وهو رابض خلف الحمامة في الدوار..؟
لكن هذا تاريخ قديم .. وهل ثمة شيء يموت خاصة في الجنس..؟ أبحاث
فرويد تقول دائماً: فتش عن الجنس.. إنه محرك كل سلوكياتنا ومفتاح
كل عقدينا .. ورغم ما تعرض له من هجوم لإفراطه في الحديث عن هذا
الشيء من قبل كبار مثل يونج وادلر وحتى ابنته أنا .. إلا أن الكثيرين أقروا
بعد ذلك بتأثير الجنس في حياتنا .. هل ينغلق جسدي في مواجهة هشام
بتعليمات من العقل الباطن ربما لأن مشهده خلف الحمامة مازال مستقرًا في
قراري العميق بنفس طزاجة الوهلة الأولى ..؟

تفيض فاطمة:

_ عارفة .. فيه واحدة صاحبتني .. محاسبة .. زميلة مدحت في الشغل ..
متجوزة دكتور .. يا عيني الراجل كل ما يجي جنبها ليلة الدخلة ..
تصرخ وتتشنج وتعضه .. هي إللي قالت لي كده.. تعرفني عمل أيه ..
في الليلة التمنتاشر أعطهاها مخدر من غير ما تعرف .. ويعدين خد
بكارتها بصبعه .. يعني المشكلة ممكن تكون في الست مش في
الراجل ..

نصحتني فاطمة بالآ أظهر أمامه ضيقي أو أنني أخبرت أحداً من أهلي..
حتى لا يهتز نفسياً .. نصحتني أن أنام محتضنة جسمه من الخلف .. فإن
نفس أعبت بعضوه .. فإن انتصب أوقفه بهدوء .. وما كنت أملك الشجاعة
الكافية لأفعل هذا .. وما قدرت على فعله أنه حين يجثم فوقني أباعد بين
ساقني .. وأحمد الله أنها جاءت منه!

شبه حالمة وهو يقلبني .. يفتح ساقي .. أنفاسه اللاهثة تفرز عني.. ماذا يجري ؟ شيء ما كدبوس يشك داخلي .. أستيقظ على ومضة ألم تسري في أنحائي .. تعقبها آتة .. ثم _ ولا أدري كيف _ زغرودة.. كأنها رسالة إلى أمي.. إلى أختي .. انتبه على اشراقه نصر تتبثق من عينيه.. أزعج أن لا مشيل لها إلا في عين صياد .. تتلاشى نظرة الظفر في عين الصياد لتجل محلها نظرة ذهول .. يتفجر ضاحكاً.. مددت يدي إلى أسفل الوسادة .. جذبت منديلاً دسسته أمي بين أغراضني وأوصيتني بأن أضعه تحت وسادتي .. نشفت به خيط الدم الرفيع السائل بين فخذي .. ثم أودعته بحرص في كيس بلاستيك كنت أحتفظ به أسفل السرير .. أيضاً لهذه الغاية .. كان يتابعني في دهشة : إنت بتعملي أيه؟

لم أجب .. بل سألته وأنا ألوذ بفيضانات خجلي في صدره:

بتضحك على إيه؟

_ العرايس في الحالة دي بيصرخوا ..؟

قلت في دلال ممزوج بشيء من الخجل:

_ هو أنا ما صرختش؟

_ زغرديتي .. حاجة أول مرة أسمع عنها ..

ولم أعلق .. لكن تعليقك كان بليغاً .. ينم عن استتارة حكيمة وليست منفاتة .. ألم تكتب يوماً مقالاً بعنوان "شرف أمريكا وشرف بناتنا" .. ولأنك رجل ضعيف الذاكرة أظنك لا تتذكر .. ولأنك رجل فوضي فأظن أيضاً أنك لا تحتفظ به .. دعني أذكرك بما جاء في مقالك هذا الذي مازلت محتفظة بنسخة منه:

أخرجت المعلمة الشابة قطعة شيكولاته من حقيبتها وأعطتها لأحد طلاب الفصل .. طلبت منه أن يضعها في فمه. ثم سألته:

_ ما رأيك في طعمها ..؟

قال الطالب:

_ لذيذة

قالت المعلمة:

_ إذن أعدها إلي!!

أخرج الطالب قطعة الشيكولاته من فمه .. وأعادها إلى المعلمة وسط دهشة زملائه .. وتحولت مشاعر الدهشة إلى حالة من الاستنكار الجماعي.. حين مدت المعلمة يدها بالقطعة إلى طالب آخر ودعتة إلى التهامها .. بدا الامتناع على وجه الطالب .. واعتذر في أدب .. لتحاصر العيون المعلمة بالتساؤلات .. فقالت المعلمة!

_ أرايتم ..!؟ زميلكم رفض أن يتناول قطعة الشيكولاته لأن آخر لاكلها في فمه ..! هكذا ينبغي أن تكون علاقات الرجل بالمرأة.. انتقال الفتاة من شاب لآخر لا يتفق مع الفطرة الإنسانية!!

بدا حديث المعلمة مبالغاً وصادماً لما هو مستقر في العقل الجمعي للشباب وللمجتمع من ثقافة تحرض على الحرية الجنسية .. وتصنف كل من لا يرتكن إلى هذه الثقافة بالتخلف!! تلك الواقعة عمرها خمسة عشر عاماً .. وموطنها إحدى المدارس الأميركية .. وأجواؤها أعاصير الفزع التي اجتاحت المجتمع الأميركي مع انتشار فيروس الإيدز .. وكان لابد من ظهور عقلاء يهزون المجتمع الغربي بعنف على شاكلة تلك المعلمة .. وهذه النزعة وإن كانت تواجه بحائط صد قوي من دعاة الحرية الجنسية تؤكد ببساطة شديدة صواب ثقافتنا المستمدة من تعاليم الدين الإسلامي في هذا الاتجاه ..

فالإسلام يرفض " كئلكة " العلاقة بين الرجل والمرأة .. انطلاقاً من أننا بشر وامكانية انعدام التفاهم بينهما.. وبالت إلى استحالة استمرارية العلاقة الزوجية .. فيمثل الطلاق في هذه الحالة مخرجاً .. حتى لو كان أبغض الحلال .. إلا أنه على الأقل لا يتماشى مع الحرام.. ورغم أن التعددية

تداعياتها أحياناً مضرّة بالبناء الأسرى إلا أنها قد تكون مخرجاً للعديد من المشاكل الزوجية .. ويحدد لها علماء المسلمين ضوابط .. وتلك أهم سجايا ثقافتنا الإسلامية .. الإباحة تحت مظلة الضوابط .. عكس الثقافة الغربية التي اندفعت نحو المجهول بما يسمى بثورة الحريات المدنية ويكفى أن نشير إلى إحدى الظواهر التي تعصف بالمجتمع البريطاني والتي تتضح من حالة الانفلات الجنسي، وهي ظاهرة الأمهات الأطفال.. فبسبب الحرية الجنسية _ ولأن ثقافة المجتمع مثلما هو الحال في أى مجتمع غربي تزدري الفتاة التي تحتفظ بعفشاء بكارتها حتى سن السادسة عشرة .. وربما قبل ذلك _ يعاني المجتمع البريطاني الآن من وجود عشرات الآلاف من الفتيات الصغيرات .. بعضهن لا تتجاوز أعمارهن الثانية عشرة وأصبحن أمهات ..

طفلة في الثانية عشرة تعاني فجأة من أعراض الحمل .. والأب مراهق.. حين يعرف ذلك يصاب بالفزع .. ويفر بعيداً مخلفاً طفلة بأئسة مطحونة بواقع مخيف .. إنها بعد شهور ستكون أما!

والغريب بدلاً من أن يسعى التربويون وعلماء الاجتماع والإعلام إلى شن حملات لإعلاء القيم الروحية وتمجيد قيمة الاحتفاظ، بطهارة الجسد .. يوجهون جهودهم لاقتناع الشباب باستخدام الوسائل المانعة للحمل! ورغم أن هذه الظاهرة .. وظاهرة تفشى الإيدز وغيرهم من الأمراض التي تتضح بها الهستيريا الجنسية تعد جرس إنذار بضرورة إعادة هيكلة البناء القيمي الغربي _ إلا أننا نفاجأ بهم بالنقيض تماماً .. حيث يطالبوننا نحن بالتخلي على هيكلنا القيمي لتخلفه ولقمعه للطاقت الإنسانية.

وعلى موقع "قنطرة" الألمانى قرأت مقالاً هذا عنوانه " العذرية شبح يهدد الفتاة المصرية " كاتبة المقال تقول إن عُشاء البكارة رمز للتخلف.. وموروث من الجاهلية ..!! وتؤكد ما تقوله بآراء لناشطات في مجال " حقوق الانسان " واللائى يطالبين المجتمع المصرى بنبذ هذه العادة .. أى عادة

التمسك بالعدرية حتى تتحرر الفتيات مما يعانينه من شيزوفرينيا!
ولماذا السخرية من غشاء البكارة..؟ قالت لي إحداهن واسمها فتحية
المغربي - وهي ناشطة في مجال حقوق الإنسان - إنه في النهاية قطعة
جلد.. لا قيمة لها .. فلم نقدره كل هذا التقديس..؟
سألتها: أليس لكل دولة علم .. رمز لها ولكبرياتها الوطني..؟

قالت: بلى

قلت: ألم تهتز أميركا .. الإعلام والكونغرس والشارع .. حين دهس أحد
الأميركيين علم بلاده بقدمه..؟ أليس هذا العلم في النهاية قطعة قماش
ثمها لا يتجاوز بضعة دولارات؟ فلماذا تغضب أميركا وتطالب برأس
الرجل لأنه أهان شرف الأمة..؟

قطعة القماش تلك هي شرف أميركا والأمركيون لا يغالون في ذلك ..
علم كل دولة هو رمز لشرفها وكبرياتها .. وغشاء البكارة الذي هو أيضاً
قطعة جلد .. رمز لشرف الفتاة ..

ولقد أشاعت تلك المرأة عنى - وهي كاتبة قصة - أنني متخلف ولا
أصلح أن أكون حامل قلم!

لماذا..؟ لأنني ببساطة .. مثل الملايين من أبناء هذه الأمة .. أرفض
التوقيع على اتفاقية استيراد تقيحات الحضارة الغربية. لا أهلاً بعلمهم
وتكنولوجيتهم وديموقراطيتهم .. لكن ألف لا.. للبثور "

هذا مقالك عن شرف البنت .. وبه كنت سعيدة .. رغم خريشة وساوس
في داخلي أنك كتبت هذا باقتناع منقوص اكتمل بشيء من النفاق
لزملائنا من أساتذة الكلية الذين يرتبطون بعلاقات قوية بجامعة شرق
البحر الأحمر ويساعدونك في الحصول على دعوات منها كأستاذ زائر..
إلا أن ما تضمنه المقال من أفكار تتناغم تماماً مع استنارتي التي لم تكن
أبداً كما هو حال بعض أصدقائنا من التويريين سكيناً أحمر أساطه

على ما أراه رمز عزة وحكمة أية فتاة هنا أو هناك .. أعني غشاء البكارة..
وفتحية المفربي تلك التي تطرقت إليها في مقالك .. زرت يوماً مدونتها ..
هل تعرف بماذا شعرت حين رأيت صورتها العارية تماماً وكلامها المعنون
بـ " مذكرات "فتاة حرة" أن ساعتها متأخرة أربعة عقود .. فغباراتها عن
تحرير الجسد من مكبوتاته الجنسية .. وحق الإنسان في ممارسة حريته
الجنسية مقتبسة من تلك الأدبيات التي بزغت وازدهرت مع الثورة الشبابية
التي اجتاحت الغرب أواخر ستينيات القرن الماضي وكان أحد أهدافها
إيجاد مخرج للمأزق الجنسي الذي تعاني منه البشرية من خلال التبشير
بثقافة جديدة تتكئ على كسر ما يظنونه بـ " التابو الوهمي " الذي أحاط
به الإنسان جسده واطلاق الحريات الجنسية .. لذا شاع مع هذه الأحداث
تعبير " الثورة الجنسية " .. ويقصد بها كما تعلم التغيير الجذري في
العلاقات الزوجية .. حيث يصبح من حق المرء أن يقيم علاقات جنسية دون
الحاجة إلى زواج .. وصدرت بالفعل حزم من التشريعات التي تعمي هذا
النوع من الحرية باعتباره جزءاً من الحريات العامة .. والحقيقة أن الكثير
من هذه المصطلحات كالحرية الجنسية لم تكن وليدة ثورة الشباب في
أواخر الستينيات.. بل ظهرت في أواخر العشرينيات مع تطيرات (سيجموند
فرويد) والذي عزت كل سلوكياتنا إلى الجنس .. بل حتى الحب كان
يراه كما ذكرت سابقاً رغبة جنسية مؤجلة..! "تصور أنني إن كنت أحبك
فلأنني أشتهيك ..! هذا قلب للحقائق .. لأنني إن كنت أشتهيك فلأنني
أحبك " وحتى مصطلح " الثورة الجنسية " الذي شاع خلال ثورة الشباب سبق
وأن استخدمه عالم النفس (فيلهالم رايش) عام ١٩٣٦ حين نقد في كتبه ما
يراه بالأخلاق الجنسية المغلوطة والكاذبة التي كانت منتشرة في عصره..
حيث كان يرى أن الأخلاق ذات الوجهين وكبت الفطرة الجنسية تأتي
بتشوّهات في الشخصية.. وتفضي إلى العدوان والانفلات .. وحسب رايش
فإن تحرير الأخلاق الجنسية سيؤدي إلى تحوّل سلمية للبنية الاجتماعية ..
كما أن الإنسان الذي يعيش في علاقات مشبعة لا يمكن تقييده في نظم

حكم ولا تعبئته لأعمال عنيفة!

فإذا كان الترويج لثقافة الحرية الجنسية خياراً آخر ثورياً لخروج البشرية من "مآزقها الجنسي" .. فهل خرجت؟!

هذا ما تظنه فتحية المغربي .. حيث بدت عباراتها التي ذيلت بها صورها وكأنها استنساخ لأدبيات ثورة شباب الستينيات ..

إلا أن ما تتجاهله فتحية أن الحرية الجنسية أدت إلى تفشي الهوس الجنسي ..

وأتذكر أن السياسي الأمريكي (بات يوكانان) والذي كان مرشحاً في انتخابات الرئاسة الأمريكية أمام ريتشارد نيكسون نوه في كتابه "موت الغرب" إلى أنه من بين الأسباب التي يمكن أن تلعب دورها في انهيار الحضارة الغربية .. الهوس الجنسي وانتشار العلاقات المثلية وحمايتها بالتشريعات القانونية ..

.. وتقول تقارير دائرة الاحصاءات الأمريكية إنه يوجد في الولايات المتحدة ١٠ ملايين و٤٠٠ ألف أسرة بلا أب .. حيث تتولى الأم مسؤولية الإعالة .. ليس لوفاة الأب .. بل لأنه أمضى وقتاً ممتعاً مع الأم .. وحين أدرك أن للأمر تبعاته الاقتصادية والتربوية فـ!

وهل أدت ثقافة الحرية الجنسية إلى هدوء وسكينة الإنسان الغربي كما توقع فيلهالم رايش؟

على النقيض .. فإن كان أبناء الدول الاسكندنافية هم الأكثر استمتاعاً بثقافة الحرية الجنسية وتحرر الجسد من قيوده أو هكذا تبدو الأمور .. فأعلى نسبة انتحار في العالم تسجل هناك ..

وإذا كانت الثورة الجنسية هدفها السامي تحرير الإنسان من مكبوتاته وعمقه والتي تعد سبباً رئيسياً لارتكاب الجرائم الجنسية .. فأعلى معدلات الاغتصاب والقتل وأبشعها لأسباب جنسية تسجل في المجتمعات الغربية

.. في أمريكا ترتكب مئة ألف حالة اغتصاب سنوياً ..! والمعدل يتزايد .. وفي بريطانيا يصل الرقم طبقاً لتقرير نشر في صحيفة صن مؤخراً إلى ٥٥ ألف حالة.

والطرق التي ترتكب بها بعض الجرائم الجنسية لا توازيها في قسوتها أية نوعية أخرى من الجرائم .. حتى تلك التي تتعلق بنزعة الانتقام .. ودعني أذكرك بتلك الصور التي ظهرت على شبكة الانترنت عام ١٩٩٦ للإمرأة على شبكة الانترنت وهي تقطع جسد رجل بمنشار .. وتبين من التحقيقات التي أجريت في مدينة ميونيخ أن المرأة وشريك لها أمريكي ارتكبا تلك الجريمة لأسباب جنسية .. وفي فرنسا كشفت (كلير بريسيه) وهي مسئولة في إحدى مؤسسات حماية الطفولة عن وجود أطفال للبيع الجنسي بعضهم في سن الصبا بل والرضاعة مزقوا إرباً بعد استغلالهم جنسياً!

وأظنك قرأت عن تلك الجريمة البشعة التي كشفت عنها شرطة فيينا منذ أسابيع .. مهندس نمساوي يبلغ من العمر ٧٣ عاماً احتجز ابنته لمدة ٢٤ عاماً في قبو وكان دائم الاغتصاب لها وأنجب منها ٧ أطفال .. حين مات أحدهم وهو رضيع تخلص من جثته بوضعها في النظام الخاص بالتدفئة المركزية ..!

إذا ودون أن تدري فتحية المغربي فهذا الذي تحتفي به على مدونتها أصبح يمثل مأزقاً خطيراً للمجتمعات الغربية .. فما هو المخرج..؟

فيما فعلته المعلمة الأمريكية الشابة التي استهلت مقالك عن العفة بقصتها مع تلاميذها .. وليست وحدها التي استأثرت بالحكمة في مجتمعها.. هناك كثيرون غيرها يرون ضرورة إعادة الاعتبار لغشاء البكارة.. ورغم كل خطاياهم .. إلا أنه يحسب للرئيس الأميركي السابق جورج بوش برنامجاً الجريء لنشر ثقافة العفة في المجتمع الأميركي .. والذي رصد عبر سنوات رئاسته مئات الملايين من الدولارات للإنفاق على تنفيذ برامج لتوعية شباب بلاده بأهمية التمسك بالعفة .. وهذه النزعة .. تؤكد ببساطة شديدة أن نتائج

ثورة الشباب في الغرب تخضع الآن للمراجعة .. خاصة أنها لم تنجح في إيجاد مخرج آمن للمأزق الجنسي .. صحيح أن المراجعة لا تتخذ شكلاً ثورياً صاخباً كما حدث مع الثورة الجنسية .. وربما تسير بخطى بطيئة إلا أنها حققت شيئاً من النجاح يجعلنا نصفها بالثورة الصامتة من أجل رد الاعتبار للعدرية وللعفة!.. فثمة مؤسسات جامعية وجمعيات تدعم برامج لتحفيز الفتيات على التمسك بالعدرية .. وهناك من الأثرياء والهيئات المختلفة من يقدق على هذه المؤسسات بالمال..

وفي عام ٢٠٠٥ وصل عدد الفتيان والفتيات الذين انخرطوا في برامج العفة التي تنظمها تلك الجمعيات حوالي مليونين ونصف المليون في المجتمع الأمريكي .. وفي أوروبا يرتفع الآن في أوساط الفتيات وإن كان على استحياء شعار "عفيفات وفخورات بذلك" .. حيث تقابل تلك الظاهرة بالتشجيع من قبل الفتيان .. ومن منظمات مدنية ..

وما أود قوله أن ما تفخر به فتحية المغربي الآن يرفضه الكثير من شباب الأجيال الجديدة على ضفتي الأطلسي مع اكتشافهم وبمساعدة من العقلاء أن الحرية الجنسية ليست المخرج الآمن للمأزق الجنسي .. وأن تمجيد الجسد وتخليصه من عقده لا يكون بتعريته كما فعلت .. بل بستر ما يتعلق بخصوصيته .. وهذه الأفكار راودتني منذ عدة أيام وأنا أتأمل صور فتحية العارية على مدونتها .. أن الملابس كان أول اختراع في تاريخ البشرية!.. فإن كانت الحاجة أم الاختراع كما يقولون .. فالإنسان الأول في أفريقيا أو آسيا أو الكاريبي .. في أي بقعة من الكوكب أدرك حتمية ثقافة الستر .. حجب عورته..! الإنسان الأول أدرك ومبكرًا جدًا أهمية وجود مساحة من الخصوصية في حياته .. لذا إن شعر برغبته في الارتواء الجنسي استتر..! وإن رغب في قضاء حاجته اختلى .. فلماذا يفعل الإنسان ذلك ومنذ خطوه الأول على الكوكب ولم تفعله باقي الكائنات الحية؟ الإجابة ببساطة لأنه يتميز عنها بالعقل .. وأيضًا الحياء!

"ما رأيك ..؟ وانتتي الآن فكرة أن اقتطع سطورى السابقة حول غشاء البكارة وأنشرها في مقال بجريدة القاهرة تحت عنوان: "ساعة فتحية المتأخرة أربعين عاماً" .. ثمة عنوان آخر "حاوروها ولا تلعنوها" .. فإن كنا كأصحاب فكر تنويري نؤمن بأهمية الحوار مع الآخر .. أي آخر .. فلا ينبغي أن نستثني فتاة مثل فتحية مهما بلغ بها الشطط .. فربما أتى الحوار معها بنتيجة أفضل كثيراً من لعنها ورجمها كما يفعل الكثير على المواقع الالكترونية ..! في انتظار رأيك على فكرة المقال وعنوانه .. هذا إن استسلمت لفكرة أن أبعث اليك برسائلي تلك .. لكن مقالي هذا سيبدو متقوصاً إن لم أذيله بما ينتابني الآن من شعور ولو بدا شاحباً .. أن ما يقوله فيلهالم رايش عن الأخلاق ذات الوجهين أنا أيضاً مقصودة به ..!

أثرثر وأنظر عن العفة ويداخلي امرأة فاسقة لا تتوانى عن استحضار رجل ليعرف على أوتار نصفها الأسفل .. وهي مضجعة بحوار زوجها .. بل أسفله ..!

وزوجي يفعلها .. وأنت .. ألا ترى .. كلنا ضحايا وكلنا مجرمون .. كلنا نعاني ذات المآزق الجنسي!

ودعني أعود إلى تلك الليلة المشهودة التي نجح فيها هشام وبعد أيام من المعاناة في الحصول على برهان رجولته ودليل عقتي .. لم أنم .. كنت مبتهجة .. لكن سعادتني بلغت ذروتها وأنا أدس المنديل المخضب بدليل طهارتي في يد أمي حين طرقت بابنا لتطلق بعفوية زغرودة إلّاع لها هشام فأسرع ليسد فمها بقبضته الضخمة .. لأكتم بدوري ضحكة كادت تنفلت مني .. هشام يخشى أن يعرف الجيران أنه كان يخدعهم حين كان يظهر أمامهم مبلل الشعر لإيهامهم بأنه كان بالفعل عنترة منذ الليلة الأولى .. لكن _ أتذكر _ لم تكن سعادتني سعادة أنشئ بتدشينها في بلاط رجل بقدر ما كانت سعادة ابنة بارة بأمها ..

وماذا بعد ليلة الدخلة ..؟

هشام آخر قريب مني إلى حد إن لامست يدي جسده فلا شيء سوى الإحساس بأنني ألامس جسدي ..!! وعلى الأسرة .. كل منا في كون ناء عن الآخر بملايين السنين الضوئية! فإن نجح في تنبيه جسدي إلى براكينه الخاملة تستعد دون أن تلقي بحممها على ضفاف نهر الحياة مخصبات تطرح محاصيل الانتشاء .. فما كان لديه سوى غريزة ذكورة منتقصة ولا شيء من ثقافة وذكاء رجل محب تمكنانه من قراءة أبجدية أنثاه .. وكلما اقترب مني أتذكر بأسى ما قاله أوسكار وايلد: المرأة كالقيثارة .. كلما أجاد الرجل العزف عليها .. منحته أعذب الأصوات ..!! ولا أتذكر ليلة عرف فراشي مثل هذه الأصوات التي يتحدث عنها وايلد .. لأن رجلي .. لا يجيد العزف على أوتار أنوثتي ..! وكيف يجيد العزف على أوتار عالم لامته لا يملك مفاتيح خرائطه ..!

عائدون كنا في اليوم الثالث من عيد الفطر من زيارة أختي خديجة..
انفجر إطار السيارة .. الساعة تتجاوز الواحدة صباحًا .. ولسعة برد خفيفة
تشاكسنا .. الطريق هاديء إلا من صفير سيارة بين الحين والحين .. بينما
كان منهمكًا في تغيير الإطار .. كنت أتطلع إلى الحقول الناعسة باطمئنان
متوسدة ضي القمر .. شجرة صفصاف ضخمة تبسط أجنحتها في حنو على
ساقية بطريق صغير غير ممهد .. أخطو نحوها ببطء .. أزيح فروع الشجرة
لأتوسط المكان .. خريير ماء في مروة مجاورة يتدفق في قلبي صدى ترتيلة
تنساب من أكوان غير معهودة .. وقطرات الندى فوق أوراق الشجرة تتلألأ
تحت ضي القمر كأرواح تنتظر لحظة أمر السماء بالحلول في أجساد على
وشك الانبثاق من رحم الملائكة .. أكل هذا السحر بين أيدينا ونحن عنه
غافلون..؟ تهادي داخلي أبيات أعطني الناي .. موكب ملائكي ينساب
داخلي محبة .. لكنه يفصلني عنه بعنف:

– يا زينب ..

أتأمل وجهه في حيرة ..

– ما لك بتبصلي كده ليه؟

أود أن أبوح له ما بداخلي ..

– إيه رأيك يا هشام نقعد هناك تحت الساقية شوية ..!

حتى في خيالي لم أستطع أن أبوح بأكثر من هذا .. وحين عدنا إلى
بيتنا .. هرعت إلى الحمام .. اغتسلت .. وانزلقت إلى فراشي عازمة على
استحضارك .. إلفا فقط في أحلامي ..

.. لآتابه بمقاومتي .. تجردني بغير رحمة .. وما كانت الرحمة مقصدي
.. تقتصني .. هل ويختك في سطورى السابقة لأن روح القناص تنمصك
..!؟ وقد أمطرك بمزيد من التويخ لذات الشيء لاحقًا ..! لكن .. لا أدري ..

نداء يزعق في قراري السحيق أن تمددني على هذا الفراش الأسطوري الذي
صنعت له خصيصاً الطبيعة من أوراق الشجر المبللة بأنهار السماء .. والذي
بشرني به جبران الذي تعشق وأغرقتني بأن أتوحد معك في ذات العشق :

هل فرشت العشب ليلاً

وتلحفت الفضاء

زاهداً فيما سيأتي

ناسياً ما قد مضى

أنتبه .. عيناك تغرق في عيني .. كأنك تسبح على لجاج ضي القمر

المنعكس فيهما .. أفاجتك :

_ عاوزة أطلع فوقك ..!

تصبيك رغبتني بالارتباك .. كهفي أنت مازلت رغم أكوام الكتب التي
قرأتها .. ألا يحق لي أن أرغب ..! إن بحث برغبتني فأنا في قواميس رجولتك
بقرة شايعة! هذا ما يردده ذكور قريتي عن كل أنثى تعيسة لا تستطيع أن
تخفي رغباتها .. سمعتها من هشام حين وصف جارتما كوثر الأرملة التي
تركها زوجها وثلاثة أطفال.. تقدم أحد أقاربها للزواج منها فرحبت .. بل
فرحت .. بالسذاجتها .. كيف تقع في تلك الخطيئة ..! ألم تقرأ أبداً بيت أبو
فراس الحمداني: "نعم أنا مشتاق وعندي لوعة ولكن مثلي لا يذاع له سر" ..
هذا هو الشعار الذي تلوذ به كل امرأة حكيمة حتى لو كانت دواخلها
تمور بنار الرغبة .. جارتما تصرفت بتهور حين عبرت عن رغبتها في الزواج
لتصبح المادة المفضلة لثرثرة المقاهي والمصاطب التي يواجه بها ذكور
القرية ضجرتقويمهم الرتيب .. واتفق الجميع _ وليس هشام وحده _ على
أنها بقرة شايعة .. مش قادرة تصبر! غضب أشقاؤها _ أحدهم صحفي _
هددوها والعريس بالقتل .. وعلق هشام: معاهم حق ..!

ليلاً حاولت أن ألقنه درساً ..

أطالبه بمداعية طرف أذني بلسانه .. قرأت في بحث أن تلك اللمسة الندية من لسان الرجل تهدر في أنهار الأنثى شلالات قادرة على تحطيم صخور البرودة .. يرمقني بدهشة للحظات قبل أن يستجيب بتردد لينتفض جسدي تحته نائراً متلهفاً إلى ما هو أكثر .. لكنه توقف ربما ظناً منه أن هذا وحده يكفي .. لا أدري .. وانتني رغبة شيطانية .. ماذا لو كنت أنا الفاعل! أحرك وجهه إلى اليمين قليلاً ليمكن لساني من أذنه .. لا شيء في داخلي غير مألوف إلا ترقب رد فعله ليفاجئني .. عيناه تتزعان نحو الانغلاق .. بينما تكسو وجهه مسحة من الخدر .. ينتفض سريعاً .. منفلاً .. وهو يبسمل ويستعيد بالله من الشيطان الرجيم .. وأظن أن الشيطان الذي يقصده هو أنا .. يمنحني ظهره ليغرق في التفكير .. في النوم .. لا أدري .. لكن .. أليس هذا شذوذاً ؟ .. هل هشام لديه استعداد فطري للشذوذ .. أن يستلذ بأن يكون مفعولاً به .. ؟ لهذا حال أي ذكر .. إن كانت أنهاره الداخلية تتدفق بهرمونات الذكورة قثمة غدير تطبق ضفتاه على محتواه القليل الساكن ربما من هرمون الاستروجين الذي إن عبث به ذكر آخر مار وفاض وتوحش وأصبح طوفاناً من الرغبات الشاذة!

على أية حال .. كانت رسالة حاولت من خلالها أن أنبهه لحقيقة نبهنا إليها عالم لا أتذكر اسمه .. أن المحسوس .. المفعول به .. أكثر استجابة وارتواء بشهد الجنس من الفاعل!!

ومع ذلك .. الرجل هو الذي يلهث في الشوارع مخترقاً بعينيه مؤخرات النساء .. أما المرأة مثل كوتر التي رحل زوجها لو باحت بمجرد رغبتهما في الزواج ثانية فهي بقرة شايعة!

وكان هذا قدرنا الذي لا فكاك منه .. كوتر وأنا .. فقط مفعول به .. نترقب الفاعل في صمت .. ليس إبداء رغبة جنسية لي وحده سبب دهشتك .. بل ربما استكارك .. أن اعتملي .. رغم أنه أحد الأوضاع المعترف بها في القانون العرفي لغرف النوم .. تسمونه الفارسي .. لأن المرأة تبدو كفارسة

تمتطي حصاناً .. أنت ترى في ذلك انقلاباً خطيراً يهدد عرشك .. أنا الذي اعتلي وأنت المعتلى .. وما كان هذا مأربي .. بل كي استمتع بشعاع القمر وهو يهدب من نظرة القناص في عينيك .. لتبدو الحقيقة التي أحلم بها والتي تتساب من جهاز التسجيل بجوارنا .. إنت عمري إلي ابنتي بنورك صباحاً ! لكنني بعد لحظات شعرت بأنني لست أنا ..

– خيلني تحت ترمقني .. هذه المرة ليس باستتكار .. بل بدهشة .. لكنك تستجيب لنزوات محبوبتك المجنونة .. هل سوف تتعتي في تلك اللحظة بالمجنونة ..؟ إذن هي لحظة الأورجازم الكبرى .. فلا رعشة لإمرأة على فراش يتدثر بالعقل والحكمة .. على الأسرة لا حاجة للنساء للحكمة .. العيب بالجسد في فضاءات الجنون على عزف أوتار القلب ما أحب .. لكنك لا تدري .. لأنني لا أقول .. وغير مسموح لي بأن أقول .. ! علمني قهرك ألا تفرح شفطاي إلا في حالتين .. على الأسرة .. حين يفعل بي .. فتتلذذ بأهاتي .. وعلى الأسرة أيضاً ربما بعد تسعة شهور لتتشي بصراخ أوجاعي التي تبشرك بأبوة تحلم بها لوربما مرة ثالثة أيضاً .. شهقة الموت .. وإياك أن تظن أنني سأذوب نشوة بين يدي رجل يتمم بشكل مهذب للغاية :

– لو سمحت يا زينب هانم اخلي سرورك .. ! ! فلتعلم أنه لأنني هانم في الشارع أريد أن أكون امرأة أخرى على سريري .. عاهرات الشوارع هن فقط من يردن أن يعاملن على الأسرة هوانم .. وأنا لست بعاهرة شارع .. ! صديقة لي – مدرسة – أسرت لي بما أذهلني .. بدءاً .. لكن سرعان ما اكتشفت أنه الطبيعي جداً .. صديقتي ادخرت مبلغاً لشراء " أنسيال " لكن المبلغ لا يكفي .. طلبت من زوجها أن يكمل لها ثمن " الأنسيال الذهبي " .. وافق .. بشرط .. أن تتيح له مضاجعتها من دبرها .. وافقت على مضمض .. كانت تجربة مزعجة كما أخبرتني !

.. لكنها وجدت نفسها تشتط عليه كلما هم بها :

– تدفع كام إن متعتك؟

حتى لو عرض ربع جنيهه كانت تفاجأ بجسدها ينصهر جذوة من المتعة في جسده .. و تفيق من خدرها على لحظة نشوة أخرى كبرى حين يضاعف المبلغ ؟.. فكرت في الأمر ملياً .. شعرت بحاجتي الملحة لأن أفعلمها مع رجلي .. أنت .. في الأحلام التي ما بحث لك بها أبداً .. هل تبدو منتشياً الآن إنك دائماً رجلي دون أن تدري ..؟ وأظنك أيضاً ترتوي حتى الامتلاء بنشوة.. قد تكون نشوة المحب .. ولكن يقيناً أيضاً نشوة القناص .. فما أنت في النهاية إلا ذكر .. فإن فتر شعورك بالنشوة قليلاً فربما تسأل: ولماذا لا تمارسين ذات اللعبة مع هشام .. زوجك ..؟ حتى لو انهارت كل جبال الجليد التي تفصلني عنه وقلت له بدلال حين يأمرني بأن استدير:

– طيب لو متعتك تدفعلي كام؟ لا استبعد في حالة مثل تلك أن يحملني ويلقي بي من النافذة وهو يصرخ:

– الشارع مكانك يا عاهرة

– وكم ألحت الرغبة المحمومة في أن أصرخ: نعم .. بداخلي عاهرة.. تبغ نشوتي مداها حين أشعر أنني مطلوبة .. نجمة هوليوود تشارلز هورثن سمعتها تقول في مقابلة تليفزيونية: لا شيء يسعد المرأة أكثر من احساسها أنها مقبولة جنسياً ..! وهل يدفع رجل لإمرأة إلا إذا كانت مطلوبة ..؟! لهذا تمارس صديقتي المدرسة اللعبة مع زوجها بسعادة ..! لكن تلك السعادة لا تعني أبداً أن تكون عاهرة خارج فراش زوجها .. إنها صديقتي ولا تخفي عني شيئاً .. مثلي .. تأسست على الفضيلة .. لكن هذا ليس وحده الذي يعصمها من الخطيئة بل أيضاً لأنها تحب زوجها.. إن أحببت المرأة صانت .. لكن ماذا عنك ..؟ دعني أتولى عنك الإجابة .. حتى لو أحببت فمن الوارد جداً أن تخون .. وربما مع امرأة تكن لها الكراهية .. أنت على السرير غريزة ذكر تشبع مع أي أنثى .. وأنا انسانة نعم انسانة وليس انساناً .. وإياك أن تظن أنني

أخطأت حين أكتبها هكذا.. فإمرأة بهامتي من الحماسة أن يبخل عليها اللغويون بناءً مربوطة " .. على الفراش لا أريد ذكراً.. بل رجلاً .. انساناً .. أنزع في حضرته روب الأستاذة الجامعية .. ولا أبالغ.. إن كان الحب يوحدنا.. وأنا أموء تحته في عهر أشعر باكتمال انسانيتي..!

ومنذ خطوي الأول في عش الزوجية ولدي شعور غامض بأن أزمتي هي تجسيد لمأزق العلاقة بين هو وهي منذ بدء الخليقة .. الآن .. مع تراكم الخبرة والقراءات بدأ يتضح لي أسباب المأزق .. أنها أكثر تحضراً .. بل تتجاوزها بألف سنة من الرقي الانساني .. والمأساة أن هشام لا يدري .. وأنت أيضاً .. تظنان أن العيب في لأنني ناقصة عقل ودين .. والعار عاري لأنني مفعول بي ..

ومن أين يبدأ هذا الشرح الذي يروق لي أن أسميه بالحضاري بيني وبين هشام؟ هو طبقاً للمنظومة الاجتماعية الطبيعي .. حتى لو ضاع حمارة أبي .. لو عرف أهل القرية لضحكوا استهزاء .. تماماً مثلما يسخرون من دخول المراحيض والتبرز .. لكنهم قد لا يستهجنون .. لأن هذا حال البشر .. نداء الطبيعة .. الجنس أيضاً نداء الطبيعة .. ومن الطبيعي أن يشبع .. من أي ثقب .. حتى لو كان ثقب طفلة أو حمارة.. وما أكثر الحكايا التي ثرثرت بها عمتي عن أبناء الأكابر الذين ضبطوا يضاجعون أبقاراً وحميراً وما عز .. وحكت مرة قصة شقيقين لديهما ناقة .. أظنها نكته .. لكنها تؤكد أنها وقعت بالفعل .. الشاب الأكبر كان سهراً في المقهى وحين عاد ليلاً عرج على الدوار ليقدم العلف للناقة ففوجيء بأخيه قد أتى بمقعد خشبي ووضع خلف الناقة وصعد فوق المقعد وأخذ يضاجعها.. زعق في أخيه:

— إيه القرف إللي بتعمله ده!!

هبط الأخ الأصغر من فوق المقعد وهو يردد في خجل:

— معلش ياخويا .. دي وزه شيطان فاذا بالشيطان يصيح مستكراً:

— والله مهما وصل بي تفكيري .. لا يمكن يوصل لي إنت بتعمله ده..!!

أما أنا فإنسانة سوية.. وبقينا لن تقودني سطوة رغبتني إلى فعل مثل هذا ..
تفعلها امرأة شديدة الاختلال ربما .. وما ورد في ألف ليلة وليلة.. وفي غيرها
من حكاياتنا التراثية عن امرأة كانت تحتفظ مثلاً بقرد ليضاجعها أو
أخرى لفظت أنفاسها تحت حمار لم تطلق قضيبه الضخم .. كتلك الحكاية
التي أوردتها سهير المصادفة في روايتها لهو الأبالسة .. كالحكاية قصص طفح
عقل ذكري مهووس جنسياً ..!

ألا ترى كم نحن مختلفان ..؟ لا أدري إن كنت تعلم بهذا أم لا ..؟ العلماء
يقولون إن موار جسدي أشد من موار جسدك .. ومع ذلك تعلمت أن أروضه ..
أطيعه .. كي أكون إنسانة.. وكما تراني أرفض أن يستجيب جسدي لأية
نداءات غواية تصدر منك .. لأنه لم يسبقها نداءات صادقة للرأس .. للقلب
.. للوجدان .. وكل كتاباتك التقريرية عن كتاباتي وغزلياتك العفيفة –
بداية – لم تكن سوى شباك للإيقاع بي .. كنت أعني هذا جيداً .. وحتى
إن استجبت أحتزل استجابتي في جغرافيا الخيال ..!! أما أنت .. والشيوخ
هشام.. رغم أن رغباتكما ليست ربما سوى خيط دخان للمبة جاز نمرة
خمس مقارنة بأنون جهنم الذي يستعر تحت جلدي .. فتكابدان لتجعلنا من
أسرة الواقع امتداداً لأسرة الخيال تستلذان فيها بالتهام لحم فرائسكما..
ولا شيء يشعل في العينين نشوة القناص سوى اللحم الطري .. حتى لو كان
لحم حمارة أبي!!

أعود مجدداً إلى هذا السؤال الذي يؤرقني منذ الصنفعة: من أين يبدأ هذا
الشرخ الحضاري ..؟.. وما كففت عن اللوث بين صفحات الكتب بحثاً
عن إجابة.. عالم الحيوان الداروني (هنري مودسلي) يرى أن هناك بالفعل
مخاً بدائياً داخل مخ الإنسان.. يجعل بالإمكان تتبع البدائية الوحشية في
الحضارة .. فهل سامي الجبالي.. الأستاذ الدكتور والناقد الأدبي .. رمز هذه
الحضارة .. الذي يدفعه نحوي.. ليس المثقف العلماني المناضل من أجل حق
المرأة في المساواة .. بل القناص الذي يسوقه لملاحقتي مخه البدائي..! فلا

تراني سوى الأنثى الفريسة؟ .. وهل هذا الذي تحدث عنه هنري مودسلي
سبب الفجوة؟.. وهل ثمة فجوة ..؟ ألست أسعد أيضًا بك قناصًا _ مهما
أنكرت _ وبني فريسة ..؟.. وإلا بماذا أفسر موجات الإثارة الغامضة التي
سرت في روحي حين صدمتني عبارة جارنا وهو يوبخ شقيقه: بقى يا تيس..
تسيب البكر وتتجوز واحدة نط عليها راجل تاني ..؟! وأيضًا .. فيوضات
نشوتي وأنت تستدرجني إلى أسرة في ضواحي اللاشريعة فأثمل حين
ترتخي أسلحة مقاومتي وأرقب في شوق أصابعك الخشنة وليست أصابعي
وهي تنزع عن جسدي حتى ورقة التوت ..!

وهل ثمة علاقة بين تلك القوة الغامضة بداخلي والتي تجعلني لا أنصت
كثيرًا لصوت المخ البدائي وبين نتائج دراسة حديثة أجريت في جامعة
كاليفورنيا الأمريكية انتهت إلى أن ثمة فروقًا فسيولوجية وراء الأخدود
الذي يشطرنبي عنك؟ .. الدراسة تقول إن نظرة الرجل للمرأة تنبئ من خلايا
في الفص الأيسر من المخ تتعلق بالغريزة. .. أما نظرة المرأة فتفيض من
خلايا في الفص الأيمن تتصل بالقيم الإنسانية والعاطفة والجمال والإبداع
والخيال .. ويبدو أن الكاتب البرازيلي الشهير (باولو كويلو) فجع بهذه
الفجوة الحضارية.. لكنه تجاوز انزعاجه سريعًا .. وحاول كرجل أن يقلل
من تلك الفجوة .. حين يعبيء المخبوء في داخله من الأنوثية إزاء كل موقف
ليحدث توازنًا مع الذكوري فيكون الإنسان .. أظن أن هذا ما كان يعنيه
حين قال في حوار مع شبكة سي إن إن:

"أنا امرأة .. يبدو مذهري كمظهر الرجال .. لكنني امرأة..."

ثم ابتسم وقال موضحة: بمعنى أنني أعمل دائمًا على توطيد الاتصال
بطاقتي الأنثوية .. علينا أن نوازن بين الناحيتين .. فتحن بحاجة للنظام بقدر
حاجتنا للعطف والحنس .. وفي رواياتي أحاول دائمًا التركيز على الجانب
الأنثوي .. كي يمكن تقبله.."

ليس وحده باولو كويلو الذي يحتفي بشطره الأنثوي .. فبينما كنت

غارقة في "أنا" أورهان باموق المقموعة وهي تطفو على سطح ذاكرته في كتابه المهم "أسطنبول" سمعته يقول: "مازلت أتساءل بسداجة ما إن كان من الممكن أن أكون أفضل لو ولدت امرأة ..

ماذا لو قال رجل عربي مثل هذا ؟.. يقيناً .. سيكون مستهدفاً من كل ملكات السخرية من المحيط إلى الخليج .. ومع ذلك فعلها أديبنا يوسف إدريس و باح بشيء من هذا القبيل .. فإن لم تخني الذاكرة أظن أنه قال إن إبداعه يتدفق من الجانب الأثوي داخله ..!

وشعرت بأن أقوال كل هؤلاء دعم لي وإن جاء متأخراً لتلك المعركة الصغيرة التي ورطت نفسي فيها بحماقة منذ عدة سنوات حين انقلت من شرنقتي لأتصل بشيخ في إحدى الفضائيات التي توصل الناس للجنة .. هكذا يقول شعارها! كان يتحدث حول قوامة الرجل.. كان ينظر لماذا أن المرأة لا تصلح أن تكون ولية .. محافظة .. أو وزيرة .. وأصدر فتوى بأنها يقيناً لا ينبغي أن تكون قاضية .. لماذا؟ لأنها ناقصة عقل ودين .. أغاظني قوله .. "ربما سبب غيظي أيضاً أن ذلك الشيخ سبق له منذ سنوات أن أفتى بحرمة مشاهدة التلفزيون .. لكنه كما يبدو غير رأيه حين أصبحت تلك الفضائية التي توصل الناس إلى الجنة سبوية له ولغيره تدر عليهم ملايين الجنيهات سنوياً .." رفعت السماعة وضغطت على رقم القناة .. وقلت له بدون مقدمات.. وربما ما يبدو أنه بعيد عن موضوع حديثه .. قلت: يا شيخي العزيز ليست المرأة ناقصة عقل ودين .. الرجل هو ناقص انسانية .. دون المرأة بألف سنة .. ولكي يكون انساناً وليس ذكراً هو في حاجة إلى أن تزيد لديه ولو قليلاً إفرازات هرمون الاستروجين .. المرأة انسانة بسبب هذا الهرمون ..!!

أظنه لم يفهم كلامي واكتفى بأن دعا لي من عليائه بالهداية .. لكن مشاهدين آخرين من الرجال ممن يتوقون أن يدخلوا الجنة عبر تلك القناة فهموا ما أعنيه فردوا في غضب: تلك المرأة المنحرفة تريد تخنيث الرجال .. "فكرت للحظة أن أعيد الاتصال لأزيد بما يمكن أن يصددهم في

حقيقتهم .. أن أبلغ صور الفجوة الانسانية بين الرجل والمرأة موطنها السرير ..
الفروق هناك تبدو جلية .. إنه يعتليني وشعاره المثل الإنجليزي

It,s pole and hole

حتى القبلات تبدو عبثاً ثقيلاً .. كنت أود أن أتحدث عن طقوس هشام
في السرير

– استديري!

هي البدايات كنت أسأله لماذا ؟.. لأنني كنت هبلة .. وبمرور الوقت
عرفت لماذا ..

– اخلعي هدومك ..

واستجيب في غيظ لأنه لا يدرك أن عالمي لا يمور بالإثارة إلا حين تمتد
أنامله الخشنة لتتزع عني سروالي .. لتتدفق شرابيني بمشاعر الفخر أنني
مطلوبة .. أو... قريسة!

.. وبعد دقائق يفرغ داخلي قطرات من ماء النار .. ليهبط في إعياء
ويمنحني ظهره وسرعان ما يعلو شخيرته!.. بداخلي زفرة مقموعة كنت أود
أن أثبها على الهواء مباشرة..

– ما أتعس النساء .. جدران تبدو مزروعة بالمسامير أو كما قال
هشام مرة معللاً إخفاقاتنا في غرفة النوم: فرجك زي حيطه مغمقة
بالأسمنت..!!

صفعة أخرى وجهها لي .. لكنه على أية حال لم يتجاوز الحقيقة .. وسأظل
هكذا .. لن تتدى دواخلي بسوائل الشوق واللهفة طالما أن هشام يعتليني
كيفما اعتلى حمارة أبي .. ومرة باحت لي أختي فاطمة بما ينقصني حنية
رجل محب .. خبير بلغتي .. عندئذ تهدر أعماقي السحيقة بأعواج النشوة ..
ليرتخي الجسد تحت تأثير خدر الروح .. ليتكور في داخلي جنين .. ينبثق
من بين فخذي .. لألقفه بشوق.. أنشئ .. وأشكل وأربي ..

كنت أود أن أعري على الهواء مباشرة حقيقة هشام وكل هشام.. كنت أود أن أقول: أيها السادة .. الجنس كما ترون .. أعيشه بكل كياني عمراً كاملاً .. وهشام .. الذكر .. ليس لديه سوى عشر دقائق إن لم يكن دون ذلك بكثير ليعطيني ظهره ويشخر ..!! كنت أود أن أحدثهم عن عشور علماء جامعة كارديف في مقاطعة ويلز البريطانية بعد ثلاث سنوات من البحث على ما ظنوه إجابة لهذا السؤال: كيف يكون الرجل أكثر جاذبية لأنثاه ..؟ وبدلاً من أن يفوضوا في أعماقي بحثاً عن الإجابة .. استخدموا سمكة " أبوشوكة " .. حيث توصلوا إلى أن بعض ذكور تلك السمكة تفرز كميات صغيرة من بروتينات يطلق عليها اسم "بيبتايدات" وتستخدمها في إطلاق رائحة تجذب بشدة الإناث .. حين توصل باحثو الجامعة البريطانية إلى هذا الاكتشاف فركوا أيديهم في ارتياح وهم يرددون: أخيراً وجدنا الحل!! من الممكن جداً إنتاج روائح عطرية قادرة على تفجير رغبات المرأة الجنسية.. قليل من تلك الروائح "يتبرفن" به الذكر قبل أن يدخل غرفة النوم ليجد إمرأته نزعته كل ثيابها وانحنى أمامه في انتظار اقتحاماته ..!! ألا ترى .. الرجل هو الرجل .. سواء كان هشام ابن نجوع الدلتا أو عالمًا في جامعة كارديف .. الأمور كلها تتحصر في النصف الأسفل من الجسد وإفرازاته.. لو أنصتوا باهتمام إلى تلك الشاعرة العباسية التي قالت منذ ثمانية قرون: إن النساء بنا.. من أذانهن!! لعرفوا شيفرة جسدي ..

الكلمة الصادقة .. مفتاح كل فردوس أنثوي .. ليس جسدي بداية .. بل قلبي .. روعي .. فإن نبض قلبي ارتخي جسدي استعداداً .. لينتفض تفاعلاً.. ليستكين خدراً ..

هل تباغتك كلماتي ..؟ وكل الرجال .. الأغبياء فيهم والذين رغم معاشرتهم لنا منذ آلاف السنين مازالت مفاتيحنا مستغلقة عليهم وإن كانوا يدعون غير هذا .. والذين يستعجبون .. هؤلاء الذين عرفوا المفتاح.. لكنهم يأبون استعماله فخسروا وخسرنا معهم .. وسبب المباغته ربما أنني أنزع

عن كياني الرداء الذي لا تروننا جميلات مشيرات إليه .. الخجل .. لكن ثمة أموراً يجري تشكيلها الآن أهم وأخطر من حروب غرف النوم .. هذا ما اكتشفته بعض الأوساط النسائية في ثمانينيات القرن الماضي بالولايات المتحدة الأمريكية .. حين ظهرت موجة ما يسمى "نسوية ما بعد الحداثة" .. هل قرأت شيئاً عنها ؟ دعني أشرح لك اتجاهات هذه الحركة .. فلسفتها تركز على أن المرأة تختلف عن الرجل في بعض الخصائص البيولوجية والنفسية وأن في ذلك تمييزاً حقيقياً وليس انتقاصاً من شأنها .. وواكب ظهور هذه الحركة موجة قوية من الانتقادات لـ "المنجزات" التي حققتها الهيمنة الذكورية على العالم .. كما ظهرت دعوات لرفض انفراد الرجال بحكم الكوكب بسبب المآسي التي جرها ذلك الأمر على الإنسانية بشكل عام .. "ومرة أخرى .. إياك أن تزنن أوراقى تحت مجهرك النقدي لتنتهي إلى أن ما بين يديك رواية معيوبة بالتقريرية الفجة .. فما لذت بقلمى وأوراقى لأكتب رواية .. بل لأبثك صراخ أوجاعي التي لاعلاقة لها بأي جنس أدبي .."

وقد يثير دهشتك أن أنصار نسوية ما بعد الحداثة .. وما أكثرهم يرون أن المرأة الأجدر بأن تكون المهيمنة على غرف صناعة القرار .. من منطلق أن السيطرة الذكورية على القرار السياسي كانت وراء الظاهرة الاستعمارية واضطهاد الشعوب الضعيفة .. ويدعم هذا الاتجاه دراسات علمية وأكاديمية تحاول الربط بين الهيمنة الذكورية على غرف صناعة القرار في الغرب بشكل خاص واضطهاد الشعوب الضعيفة عبر تشريح فترات الاستعمار التي تعرضت لها تلك الدول. كما ظهرت دراسات نقدية لها سمي بالعقلية الذكورية التي خلصت إلى أن تلك العقلية تسببت في قهر شعوب العالم الثالث والطبيعة والمرأة! .. وبدأ في تلك المرحلة تغير واضح في نوعية الأهداف التي تناضل من أجلها المنظمات النسائية داخل الولايات المتحدة حيث ظهرت دعوات لتحسين ظروف معيشة الشعوب المقهورة ومنح جميع سكان العالم فرصة تحصيل العلم والتمتع بالديمقراطية ..

هل سبق وأن قلت إن أبلغ صور الفجوة الإنسانية بين الرجل والمرأة تدهمنا في غرف النوم؟! عفواً.. بل وكما أكدت الدراسات .. تبدو الفجوة جلية أيضاً في غرف صناعة القرار التي يدار منها العالم .. قرارات الرجل تصدر من تلك الخلايا الغريزية في الفص الأيسر من دماغه .. لذا تستهدف اشباع غريزة القنص والقتل والتملك .. فإن ملكت المرأة مفاتيح غرف صناعة القرار .. فمن نهر إنسانيتها الذي يترقق بهرمون الاستروجين تتدفق قراراتها برداً وسلاماً على البشر ..!

ومنذ عدة شهور روعني المشاركون في ندوة حول " الأدب النسائي " في منتدى الفكر الحر .. وجميعهم .. نساء ورجالاً .. كانت تلك نظرتهم للأدب النسائي .. أنها ذاتها النظرة التي تلو كونها منذ ٦٠ عاماً أن الأدب النسائي .. هذا الذي يتعلق ببوح المرأة عن عالمها الأنثوي الخاص جداً .. والخاص جداً يعني في النهاية حديثها عن جسدها .. وكأن المرأة عدم إلا قليلاً .. وذلك القليل جسدها .. وهذا كان سبب اندفاعي الذي كابدت لترشيحه من حمم الغضب وراء كتابة مقال عنوانته بـ " أدب الاستروجين " أنوي نشره في إحدى الصحف .. إلا أنني أتيت لك قراءته الآن .. وسوف أهاثك بعد يومين من وصول رسالتي تلك لأعرف رأيك " هذا إن استقر رأيي على إرسال أوراقتي تلك لك " .. وها هو المقال :

أدب الاستروجين

منذ ستة عقود تقريباً ظهر هذا المصطلح ، الكتابة الأنثوية أو الأدب الأنثوي " فيمينزم " مع كتابات الأديبة البريطانية (فرجينيا وولف) والكاتبة الفرنسية (سيمون دي بوفوار) في كافة أرجاء العالم .. خاصة مع حالة الجراحة المفترطة التي انتابت أفلام النساء مع حمى حركة الحقوق المدنية التي اجتاحت الغرب في أواخر ستينيات القرن الماضي .. لتغمس الأدبيات أقلامهن في المحيطات السرية لعوالم الأنوثة ويكتبن .. وأصبحت كل كتابة نسوية ذاتية تخوض في أدغال ومجاهل القارة الأنثوية تصنف

أدباً نسوياً .. وكان الأدب النسوي بهذا التوصيف يفترض أن يتكئ على شرطين.. أن يكون انبثاق رحم امرأة أو فيض علبة ماكياجها .. وأن يكون ذاتياً ومزناً في فضاء الشأن الأنثوي .. تحديداً علاقة المرأة الخاصة بالرجل.. وبالمجتمع الذكوري بشكل عام .. إلا أن هذا النوع من الأدب لم يزهري في عالمنا العربي إلا في ربيع القرن الأخير .. وازداد شيوعاً مع منتصف تسعينيات القرن الماضي .. خاصة في بعض المجتمعات الخليجية مع انتشار التعليم بين صفوف النساء وخروج المرأة إلى ميادين العمل واكتسابها قدرًا من الشجاعة دفعها إلى أن تقول ما خشيت أن تقوله عبر آلاف السنين في هذا الذي يتعلق بعلاقتها بالرجل .. وحظي هذا النوع من الكتابة النسوية بقدر من الشيوع بين الرجال أحياناً لأسباب تتعلق بشهوة الفضول .. فهذا هي نافذة لها وجود حقيقي يطل منها الرجل على المخدع السري للمرأة.. والذي ظلت معلوماته عنه مجرد طفح أخيلة ذكورية مريضة .. وها هي حواء ذاتها تبوح وتتعترف بما يمور في أعماق محيطاتها السرية من تيارات عنيفة وحادة ظلت غائبة أو متجاهلة من الرجل.

إلا أن هذا المفهوم الشائع للأدب النسوي لا يبدو دقيقاً ، فمن الكتاب من نجحوا في استقراء خرائط المرأة ربما أكثر من المرأة ذاتها .. من هؤلاء إحسان عبد القدوس .. فهل يمكن أن نصنف كتاباته عن المرأة بكونها أدباً أنثوياً لأنها خاضت في عوالم المرأة؟

أظن أنه كان من الأجدى أن يطلق مصطلح "الأدب النسوي" على كل ما كتبه المرأة بمداد هرموناتها الأنثوية .. بغض النظر عن المتن.. ذاتياً.. سياسياً .. حريباً.. المهم أنه أدب يفوح برائحة الاستروجين .. فحين تغمس روائية قلمها في هرمونات أنوثتها وتكتب رواية سياسية عن حرب العراق مثلاً .. فيمكن تصنيف تلك الرواية كأدب نسوي .. لأنها تفوح برائحة الأنثى .. رؤية الأنثى لحدث ما حتى لو كان عسكرياً أو سياسياً يقيناً .. تختلف عن رؤية الرجل.. المداد الذي كتبت به نفس الأحداث يختلف ..

وهذا الاختلاف يمنع لكل منهما مذاقه الخاص .. ورغم اعتراض الكثير من النقاد على تلك التقسيمة .. أدب ذكوري وأدب نسوي .. على اعتبار أن ما يكتبه الرجل أو تكتبه المرأة هو في النهاية أدب إنساني .. فالتقسيمة تفرض نفسها على القارئ والناقد معاً طالما أن الرائحة الهرمونية تختلف في هذا عن ذلك.

حين تعرضت "مسز كرازون أكينو" رئيسة الفلبين السابقة لانقلاب عسكري .. وأبلغت في الرابعة فجراً أن القصر الرئاسي محاصر بقوات الجيش ورئيس الأركان ينتظر مقابلتها بقائمة من المطالب .. نهضت رئيسة جمهورية الفلبين من فراشها وتوجهت أولاً إلى المرأة ووضعت شيئاً من الماكياج .

.. وصففت شعرها جيداً وارتدت ثوباً أنيقاً .. ولم تغادر غرفة نومها قبل أن تتأكد من اكتمال أناقتها ثم توجهت إلى القاعة الرئيسية للقصر لمقابلة رئيس الأركان .. وبدأت معه مفاوضات شاقة انتهت بانسحاب قوات الجيش إلى ثكناتها .. فماذا لو كان الرئيس رجلاً؟ يقينا سيتخذ السيناريو صورة أخرى .. وليس مستبعداً حين يبلغه رجاله أن قوات الجيش تحاصر القصر أن يقفز من فراشه بملابس النوم إلى القاعة مباشرة لمقابلة مبعوث قادة الانقلاب.. ما أعنيه أن هرمون الاستروجين تفوح رائحته في أي موقف تكون بطلة المرأة .. إذن لحواء منظورها الخاص للشأن العام وبالتالي إن كتبت فكتابتها مهما كان الموضوع الذي تكتب عنه تصنف أدباً نسوياً .. لذا من السخف أن نرتزن هذا المفهوم فيما تكتبه النساء عن الخاص الجسدي أو العاطفي .. أنها نظرة ذكورية مجحفة .. أن الأوان لتصحيحها!

هل أقسو عليك .. نعم .. أحياناً ؟ إنها حيرتني .. مخاوفي منك .. من كل رجل ! لكنني أحياناً أخرى .. ربما أكثر .. أرى في كل تصرفاتك وليس فقط في كتاباتك التجسيد الحي في هذا العالم للرومانسية .. علاقاتك حتى بالرجال .. بالطبيعة .. بالطبع بالنساء .. وأكثر من مرة ضبطت عينيك مغروقتين بالدموع بينما راديو مكتبك ينساب منه شجن حلیم .. يا شارع الضباب .. وثومة .. لسه فاكر .. وفريد .. حكاية غرامي .. يا تصبريني على الحرمان يا ترجعيللي ليالي زمان .. رغم أن فريد لا يطاول في داخلك وبالعدوي بعد ذلك داخلي حلیم .. كأن نهر عواطف ينتظر إشارة من ملوكك الذين هم أيضاً منذ عصاري مراهقتي فوق سطوح منزلنا القديم .. ملوكي .. حلیم وثومة وفريد وعبد الوهاب .. وناجي وجبران والشابي .. ليتدفق دموعاً .. ألا تلاحظ .. كلهم رحلوا .. وحتى الآن لغير مطربي وشعراء القبور لاندین .. وتلك الرومانسية التي تفيض من مسام روحك هي الجذر الحقيقي لحبي لك .. منذ ثلاث سنوات نشرت مقالة في مجلة الكاتب العربي اجتاحتني كلماتها كإعصار لا يقاوم .. وبالفعل كلما عدت إليه وأعدت قراءته أتناول سماعه الهاتف في وهن أنشئ محبة لأهاتفك .. لأتوحد مع شجنك .. لأعلن بغير التباس أنني ملك بنانك .. وبمجرد أن يلفحني صوتك .. أبذل في مشقة جهداً خارقاً لأكون شرسة في مواجهتك .. المقال كان بعنوان "ملوك وجداني" وها هو الآن بين يدي أخضب بحروفه روحي التي أخشى عليها من التصحر .. وتلك بعض سطورہ:

" .. كما الكثير من أبناء جبلي .. أدين بقدر هائل في تشكيل خرائط وجداني إلى شعراء مثل أبي القاسم الشابي ورائعته "صلوات في هيكल الحب" .. وإبراهيم ناجي ورائعته "العودة" و"الأطلال" وعلي محمود طه وجندوله .. وأدين بقدر أكبر لشعراء المهجر .. الذين تعلمنا منهم كيف نسبح في فضاءات من المحبة والتسامح .. كيف نستطيع الفكاك من أسر

جاذبية غرائز الجسد وتسمو كينونتنا لتهجع في مدارات روحية تستعصى
على الادراك بحسابات البشر المألوفة .. أتذكر أمسيات قرיתי الصيفية
الهادئة .. إلا من صخب تدفق دموعنا أنا ورفاق الثانوية العامة .. حين يقرأ
أحدنا " أعطني الناي " دموع حنين لشهقة البكاراة الكونية كما رسمها
جبران خليل جبران .. أتذكر توقنا إلى الأنثى المستحيلة .. عبر أبيات
الشابي:

"عذبة أنت كالطفولة كالأحلام كاللحن كالصبح الجديد

كالسماء الضحوك كالليلة القمرء كالورد كابتسام الوليد "

فنرى صبايا قريتنا يتسربلن على السكة الزراعية بأرديتهن المدرسية
كأنهن أبيات شعر لأبي القاسم تنثرها أشعة شمس الصباحات الشتوية
دفتاً يسري في عروقنا .. جمالاً أثيرياً .. يظهر دواخلنا من نوازعها الشيطانية..
فلا نرى الأنثى .. كل أنثى .. سوى روح نقية .. غشتها الملائكة بطهرها ..
بسموها ..

فإن خدعتنا الأنثى الحبيبة .. وداهمتنا بانسانيتها .. تأكل وتشرب مثل
الإنسان .. تهجر وتخون وتغدر مثل الإنسان .. صرخنا بلوعة مثلما صرخ
كامل الشناوي:

"كوني كما تبغين .. لكن لن تكوني ..

فأنا صنعتك من هوايا ومن جنوني .. "

لكننا نكذب لوقلنا مثلما قال: "ولقد برأت من الهوى ومن الجنون.."

فما برأنا أبداً من الهوى وجنون الهوى ..

ونعنف القلب إن وهن مثلما عنفه إبراهيم ناجي:

أيها الساهر تغفو .. تذكر العهد وتصحو

فإذا ما التام جرح .. جد بالتذكار جرح

فتعلم كيف تنسى .. وتعلم كيف تمحو

أو كل الحب في رأيك غفران وصفح؟
تلك هي الأنثى الحبيبة كما لملمنها من قصائد أبائنا العظام .. ناجي
والشابي والشناوي
.. وذلك هو الخلاص للروح .. العودة إلى الطبيعة في بكارتها الأولى ..
كما علمنا جبران وشعراء المهجر ..

"هل فرشت العشب ليلاً

وتلحقت الفضاء

زاهداً في ما سيأتي

ناسياً ما قد مضى .. "

وحين تتغرس هواجس الوجود في أرواحنا أرقاً .. نهرع إلى عالم إيليا أبو
ماضي .. نبحث عن أجوبة لأسئلتنا الحيرى .. فتعلمنا حيرته بموجات أعنى
من الأرق ..

أجدد أم قديم أنا في هذا الوجود

هل أنا حرٌّ ظليقٌ أم أسيرٌ في قيود

هل أنا قائدٌ نفسي في حياتي أم مقود

أتمنى أنني أدري ولكن لست أدري!

فهل أخطأنا حين سرنا خلفهم ..؟

تسأل وألهث خلف سطورك بحثاً عن إجابة:

" .. وما أعنفه الإحساس بالذنب الذي كان يعصف بنا في ذلك الوقت ..
لأننا سلمنا وجداننا طوعاً وحباً لهؤلاء دون أمير الشعراء .. شوقي وصديقه
حافظ .. لكن .. في مواجهة الإحساس بالذنب ثمة نشوة التمرد .. إن كانت
الذائقة العربية اختارت هؤلاء أمراء .. فذائقنا اختارت آخرين .. الشابي
وناجي وجبران وإيليا ملوكا .. ولدينا القوة لنبوح بغير خجل باختياراتنا ..

فهل أسأنا الاختيار ..؟

الآن في شيبتا أقول: لم نسئ .. وما وقعنا في شرك المراهقة الفكرية..

اختبارات الزمن برهنت أننا كنا على صواب .. فالسواد الأعظم من جيلي ومن الأجيال الأخرى مازالت قلوبهم تنتفض لوعة حين تشدو أم كاشوم بأطلال ناجي .. وإن باغتني فيروز من أي راديو في مقهى أو على الطريق براءة جبران " أعطني الناي " .. أبكي بنفس نضارة دمع الثانوية العامة في ليالي قرتي الصيفية .. وحين تداهمننا الفضائيات بمشهد أشلاء شيخ فلسطيني في مخيمات غزة مزقه دبابات ميركافا الإسرائيلية .. أو امرأة عراقية تنوح على الأب أو الأخ الذي مزقه صاروخ من طائرة باتشي أمريكية .. من فينا لا يصرخ في داخله " أخي جاوز الظالمون المدى " وجدار الهوان الذي شيدته إسرائيل ليحجز الرضيع الفلسطيني عن ثدي أمه ألا يمور مشهده في أعماق كل منا بصرخة الشابي:

" وللحربة الحمراء باب بكل يد مضرجة بالدماء يدق "

ألا ترى ..؟ وكأنك كنت تجاورني على مقعد الدراسة في حصص أبله هدى .. أو على سطوح بيتنا القديم .. نفس الأشعار .. نفس الأغاني التي وردت في مقالات ذاتها كانت ومازالت أكسجين وجودي ..

لكنني وكما لمحت لك مراراً أرى أن لغة رسائلك التي تنهال علي منذ سنوات تعرضت لتبديل خبيث أخافني .. حبلى نعم بالرومانسية .. لكن رومانسيتهك تلفحتني بزفير صياد يصارع لأن يسوق فريسته إلى السرير .. أبدي تبرمي .. استهجانني .. ودائماً لديك تفسير:

— أكثر الناس رومانسية رجالة وستات أكثرهم نهما للجنس .. لكن أي جنس ..؟ بالطبع مع محب رومانسي ..

وتزيد:

– الجنس مع المحب شهيد ..!

أمطرِكَ بثورات غضبي: ما عندكش حاجة تتكلم فيها غير الجنس؟
ولا أكف عن اظهار استيائي؛ لكنني أخفي حقيقة أمري .. أن بكلماتك
كانت تتندي منافذي ليلاً توقفاً لاخترافاتك.. أستحضرها .. نسائم تدغدغ
روحي .. أعاصير تزلزل جسدي .. تستبيح ممالكِي التي استعصت على
هشام رغم مسكوك الملكية الموثقة من المأذون على سنة الله ورسوله و
بمباركة من كل أهل القرية .. أهديك بحب.. بشوق .. جسدي على أنغام
ألف ليلة وليلة ..:

يا حبيبي .. الليل وسماه .. ونجومه وقمره وسهره وانت وأنا

ياحبيبي أنا .. يا حياتي أنا كلنا .. في الحب سوا

والهوى .. آه منه الهوى .. سهران الهوى

يسقينا الهنا .. ويقول بالهنايا حبيبي

فتشهد: هو العمر ايه .. غير ليلة زي الليلة..!

ودعني أذكرك بواحدة من رسائلك الخبيثة:

هل لديك مرآة في غرفة نومك ؟.. إذن انظري إلى عينيك .. امعني
النظر.. ألا تلاحظين شيئاً؟.. شعاع ناعس .. في وهنه.. رعشته تبدو وكأنها
الكلمة الأولى لقمر رضيع .. يدنو منه.. يتوحد معه أحياناً.. لظي نجم جبار..
هكذا أنت.. زينب رضوان الحناوي .. جليلة بغير أدنى التباس في صفحة
عينيك.. تشكيلة من المتناقضين: الرعشة الشاعرية لقمر وليد أو ربما
أكون أكثر دقة لو قلت لنجمة إن نأت ملايين السنين الضوئية .. ولطأها
إن دنت وحطت في سرير رجل محب ..!! والجمال الحقيقي في هذه الحياة
ذاك الذي تشكله أقدار متناقضة ..!! انتظري .. لا تبارحي غرفتك .. بل
أوصدي الباب.. النوافذ .. انزعي ملابسك قطعة قطعة .. تأملي جسديك
في المرآة.. تأملي ذلك القوام الممتد بشموخ في فراغ الغرفة .. استديري ..

تأملني تشكيلة الردفين .. أظن منهما يستمد التشكيليون قواعد الجمال التي يتخذونها منهجاً لريشتهم ..! ارتدي ملابسك .. توجهي إلى الحمام .. توضأي .. صلي ركعتي شكر لله .. فما شكك الله مثلما شك النساء .. لقد خلقهن .. أما أنت .. فأبدعك .. "!!

تهاتفني مساءً: إيه رأيك في الرسالة .. قرأتها؟ فأجيب:

_ أنت مراهق ..!!

ومع ذلك أهرع إلى غرفة نومي .. أغلقها كما أمرتني .. أنزع ملابسني قطعة قطعة .. كما أمرتني .. أتأمل جسدي في المرأة .. استدير وعياني لا تبارحان المرأة .. كما أمرتني .. أتأمل قوامي الممتد بشموخ في فراغ الغرفة كما أمرتني .. لا ارتدي ملابسني .. ولا أتوضأ وأصلي ركعتي شكر لله على هذا الجسد الرائع الذي أبدعه سبحانه وتعالى كما أمرتني .. بل انتصب أمام فراشي .. استحضرك خلفي لتكسر شموخ هذا الجسد بأوامرك الأخرى التي تراودك في أحلامك ولم تضمنها رسائلك .. أن انجني حتى تلامس جبهتي حافة السرير ليتدفق صراخ هوائي فتقبض أنهار شموخي .. أتوجه إلى الحمام .. أتظهر من أثامي .. أوارى جسد مذلتني تحت أردية كثيفة لأصلي مئة ركعة استغفار .. أتوسل إلى الله أن يخلص جسدي من موارهِ الجهنمي .. منك!! فأهجع .. مكابدة .. في اطمئنان ليوقظني هاتفك .

_ لابسة أيه ..!

أود أن أنهال بسماعة الهاتف على رأسك الشيطاني ..!

_ وانت مالك!

حاولت أن تكون كلماتي جافة .. لكن لم تخل أبداً من دلال الأنثى .. دلال ينبثق أيضاً من رأسي الشيطاني ..

_ عاوز أتخيلك ..

أود أن أقول:

_ سبقتك ..! لا أقوى ..

_ مراهق في الستين..!

لاتبالي:

_ عارفة كنت فين امبارح!

_ في كفر الشيخ .. إنت قلتلي النهارده .

_ أمسية شعرية جميلة .. أولاد صغيرين ما حدش يعرف عنهم حاجة ..

وجايين من النجوع .. بعضهم مش مستبعد سالف جنبه المواصلات

إللي جاي بيها .. وما شاء الله على حلاوة الشعر إللي قالوه .. واحد منهم

وهو بيقول الشعر على المنصة كانت عيتيه زايغة .. بصيت لاقيت بنت

تتابعه بحزن .. وكأن ما حدش موجود في القاعة غيره وغيرها .. وهو

بيقول: دي جنبه .. دي مولودة على أيدين الجنانية!! .. دمعة شكلها

متحجرة بقالها سنين ساحت مش على خده لوحده .. على خدودنا

كنا عشان تحرقنا بلوعته .. إيه الحكاية ..؟ سألت واحد صاحبه ..

فقلتي دول في يوم من الأيام هيبقوا حسن ونعيمة .. الراجل متخرج من

أداب ومش لاقى شغل .. ولا لاقى ياكل .. وكل حياته في الشعر ..

وأهلها مش بتوع شعر .. بتوع فلوس .. هو ما تقدمش وخايف لو تقدم

هيرفضوه .. وطبعاً دا إللي هيجصل ..!

قلت له بما يشبه الرجاء:

_ طيب ما تحاول تساعده .. كاتب كبير زيك له علاقات كتيرة .. حاول

توفر له وظيفة ..

_ عشان عيونك وانتصاراً للحب ..

أباغتك:

_ لو كنت والدها .. هتوافق؟

تكفنك لحظات من الصمت تنفلت منها لتجيب بما اعتبرتته شجاعة منك

وخيبة أمل لي:

_ مش عارف!

ورغم ذلك لا تكف عن ملاحظتي .. بأن الحب هو خيارنا الذي ينسحب أمامه أي خيار آخر!

جميع رسائلك لي شبك غواية .. أكل هذا لأسير أمامك صاغرة إلى ما تسوقني إليه .. شقة في ضواحي اللاشريعة .. ؟ لن يحدث .. لكن الأقدار تخذلني .. تبارك مشروعك الاستراتيجي .. فوجئت بكالنا فقط في مصعد الكلية .. تطلعت إلى عينيك في خوف .. في فضول .. أدهشني ما أرى .. رغبة محمومة في أن تلتهمني .. مشروع جاهز دائماً لديك استعداد لتنفيذه حتى لو كان المتاح فقط بضع ثوان .. لم اكثرث .. أكان ذلك يعني استجابة متوقعة لدي؟ .. استعداد دفين للاستسلام .. نادراً في الواقع .. وكثيراً في الأحلام .. لكن ما يصنف تحت بند نادراً .. حدث .. حين زنرنتني بين ذراعيك .. أقاوم بجدية .. برغبة في أن تتهار قدرتي على المقاومة .. تركض شفتاي فراراً من ملاحمة شفتيك .. ولهفة في الداخل لأن تتعثر شفتاي ويسقطان بين شفتيك .. وحتى بعد أن هويًا أكابد لتستمر مقاومتي .. ثوان دون جدوي .. يستكينان لإعصار شفتيك .. وحين لاحقتني في فراشي مساء ذلك اليوم فاضت روحي بخدر لذيد وصوتك ينساب عبر الهاتف:

_ عارفة .. كأني كنت بارتوي من جوزة هند طازجة .. ما دوقتيش جوز الهند قبل كده؟

_ لأ

_ طعمها محايد .. لكنه العياد الإيجابي .. ندى شفائيك بدا مذاقه في شفائفي وكأنه كوكتيل بيتجمع فيه طعم كل المشروبات .. لكن مفيش فيه مشروب غالب على غيره ..

أفتش في جهاز الليمفاوي عن فلول كرات دم بيضاء ما زالت قادرة على المقاومة .. أظنني نجحت ولو جزئياً .. قدفتك:

– إيلي إنت كنت شايفة جوزة هند كان بالنسبة لي اغتصاب!!

تضحك! أباءت محاولتي بالفشل .. في غيظ:

– إيه إيلي بيضحكك؟..؟

ترتدي نظارة محاضر في القاعات الجامعية لتحكم حصارك حولي:

– عارفة إيه هو الخطأ اللي بتقع فيه لجان التحكيم في مسابقات

الجمال ؟.. إنها مش واحدة بالها من أهم عناصر الجاذبية في المرأة..

انعكاس المشاعر على وشها وفي عينيها .. في حزنها .. أمومتها ..

عنفوان وهنها وهي في غرف النوم .. تخلصات وشها وهي على السرير..

كل ده كان بيتدفق منك .. وأنا بحاول احتويك بين ذراعي في

الأسانسير .. حسيت إن الخلطة الغريبة من مشاعر الرغبة والرفض

والخوف إيلي حولت وشك لوحة تشكيلية بتستعصي على أي فنان

تشكيلي .. ساعتها عرفت ليه صورك الفوتوغرافية مش في مستوى

جمالك الحقيقي .. جمالك يستعصي على أي كاميرا .. وحتى على

الفنانين التشكيليين..

نفسي تصدقيني .. أنا مرأتك الصادقة .

هل تراني خائنة حين أبوح لك بأنني استحضرك ليلاً وأنت .. ألم تقل لي

مراراً أنك تستحضرني دوماً في فراشك بديلاً لزوجتك كلما أذن موعد

واجباتك الزوجية .. لا لتطيق فقط ما يجري .. بل أيضاً لتستمع به طالما أنا

وليس هي شريكك في الفراش! وإن لم أكن أنا فأخرى .. أي عاملة في

صناعة المتعة .. راقصة .. ممثلة .. عارضة أزياء .. فإن مللت من كل هؤلاء

فمجهولة تشكلها في خيالك .. ألا ترى .. إن خنت أنا فمي أحلامي .. ومع –

فقط – من أحب! أما أنت.. فمع أي امرأة سواء على أسرة الواقع أو الخيال..

يا لهول الفارق الإنساني بيننا!

تحدثني فاطمة عن إحدى مغامراتها الجنسية مع مدحت:

– من كام يوم لاقيته بيقوللي إيه رأيك ما تيجي نطلع فوق السطح..؟
بصيت له مستغربة وقتله: دلوقتي..! دي الساعة تلاتة ونصف .. ساعة
والفجر يأذن ..!

لاقيته بيشدني .. وبيقوللي: بس تعالي .. دا القمر طالع والجو حلو..

خد معاه حصيرة ومخدة .. وأنا وراه ماشية مش فاهمة حاجة .. طلعنا
السطح ورا جدار أوضة الأسانسير فرش الحصيرة وشدني: آقعدني.. وبدأ
يتحسس جسمي: إيه يا راجل .. فيه إيه ..! فيه إلهي عمري ما حسيت بيه
.. دفست وشي في المخدة علشان أكتم صوتي.. لو سبت نفسي سكان
العمارة والعمارات إلهي حوالينا هيصحوا على زعيقني..

بماذا تفسر متعة فاطمة وزوجها المضاعفة؟.. التجديد؟.. ولا أظن أن هذا
بالتفسير الكافي .. كان يطالبها بأن يتخاطبا باسمين آخرين غير فاطمة
ومدحت فهمست في أذنه بـ"دوحة" ليوشوشها بـ"بطة" ليزدادا انتشاء ..
وكان "دوحة" و"بطة" أخران ليسا مدحت وزوجته فاطمة .. أهو المحظور
الذي تنفجر منه يناييع المتعة؟.. متعة الذي يجري بين عاشقين على فراش
اللاشعرية .. أهذا ما كان أو ربما يجول بخاطر كل منهما .. أن ما يجمعهما
ليس توف زوجين .. بل عاشقين يغافلان الحراس الحديديين للشرعية .. التوف
إلى الحرام .. توف نمارس عليه كل صنوف القمع .. لكنه أبداً لايموت ..
وآليس ما فعلاه تحايلاً على ورقة المأذون ..! ربما ليستيد به مدحت تجربة
مع أخرى ليست فاطمة في ذات المكان أو مكان آخر شبيه .. أو تأكيد
للمثل الفرنسي المذهل: كل النساء جميلات ما عدا زوجتي؟ أهذا حكيت
لي مرة ما زعمت أنك سمعته من صديق لأم كلثوم .. بأنها وصفت صوت
المطربة سعاد محمد بأنه يشبه مضاجعة المتزوجين.. أي لا لذة فيه! لم تقل
"مضاجعة" تحديداً .. بل استخدمت تلك الكلمة المبتذلة التي تتداولونها

فيما بينكم .. عوامكم ومنتقفيكم .. وقلتها لي مراراً .. محاولاً اقتناعي بانتمائها الأصيل للفصحى .. ورغم أنني لا أصدق روايتك أن تكون ثومة التي حلقت بأمة فوق السحاب قالت شيئاً مبتدلاً مثل هذا .. إلا أن مغزى عبارتها المزعومة والدافع وراء مغامرة دوحة وبطة فوق السطوح قد يكونان وراء احتمائي إزاء غاراتك بسياسة الباب الموارب .. "تعبيرك الذي فاجأني به مرة في إحدى ثورات غضبك" .. فتحت لك نافذة صغيرة تطل منها على عالمي .. وكم عذبنني هذا الذي أراه تنازلاً هائلاً .. لكنك كنت لا تراه كافياً .. فأعلنت في إحدى مكالماتك أنها النهاية وأنتك لن تعاود الاتصال بي .. فزعت .. وكم هي الليالي التي توحش فيها شوقي إليك .. لكنني أبداً لم أهاتفك .. وحين عاودت أنت الاتصال بعد ثلاثة شهور .. كابدت حتى لاتصلك زغاريد الفرح في قلبي .. واستقبلتك بفتور!!

أترزلك اعترافاتي ؟ نعم .. كثيراً ما كنت أتوق إلى تريضك بي .. تعرشك .. لأزجرك .. فلا تأبه فأقاوم .. لأستسلم .. في أحلام يقظتي !!

في تلك المرات التي استجبت فيها لإلحاحك الذي كان يروقني دون أن أفصح .. وأصحبك في السيارة لتوصلني إلى هذا المكان أو ذاك .. " لو علم الشيخ هشام بهذا لحول حربه الباردة ضد العلمائين الذين أنت واحد منهم إلى حرب تهردها فيها بنادقه الآلية وأول مئة رصاصة ستكون مصوبة نحوك ونحوي "

كنت أتوق إلى أن أسمعها منك:

— إيه رأيك .. نمر على الشقة نشرب شاي ..!

شقتك التي حدثتني عنها من قبل .. استأجرها لك العمدة والدك حين كنت طالباً في مدرسة ابن لقمان الثانوية .. واحتفظت بها حتى حين أكملت دراستك في كلية دار العلوم .. جامعة القاهرة .. حدثتني عنها مراراً وكأنك تغويني بحلم أن أصحبك إلى هناك .. ويقينا مع كل مرة تحدثني فيها عن الشقة الصغيرة يحاصرني الحلم ليلاً ليس في أحلام نومي .. بل

في أحلام يقظتي .. لكنك لم تقدم لي عرضاً بأن نخرج على شقتك في كل مرة أروضخ فيها لالعاك وأستقل معك السيارة .. أيعزى هذا لغبائك؟ ربما .. وربما كنت تظن أنك لو فعلتها فسوف تحتقن حصون المحصنة زينب الحناوي زوجة الشيخ هشام الغازولي غضباً فتفر من حياتك فلا تراها ثانية.. رغم أنني لو تدري كنت أترقب هذا العرض منك .. لا لأستجيب.. بل لأستحضره في فراش وحدتي ليلاً .. وحين واتتك القدرة على فعل ذلك عندما اصطحبتني في سيارتك لشراء بعض المراجع التي أوصيتني بها لرسالة الماجستير التي تشرف عليها .. وفي الطريق قلت مدعيًا تذكر ما غاب عنك في مكتبك بالكلية .. أن لديك مرجعين مهمين في الشقة سيتفعا في الرسالة .. رعمتك بنظرة نافذة .. لم تقرأها جيداً .. ظننتها استكارًا واحتجاجًا .. فأسرعت لتصحيح الخطيئة التي انزلت إليها :

_ ما تخفيش .. مش هتطلعني معايا الشقة .. استتي تحت وأنا أطلع أجيبهم..!

لم يكن سهماً هذا الذي نفذ من عيني ليرشقك احتجاجاً .. بل تخيلاً للحظة آتية .. مجيئها بقرار مني .. تفصلني عنها بضع دقائق لأكون أسفلك عارية تماماً في فراش مراهقتك .. مراهقتي ..

_ بس ما تغيبيش فوق !

خدرتني تلك التورية التي تشي بها عبارتي.. وأظنك .. أستاذي .. أستاذ البلاغة .. لم تنتبه لها .. أنا نفسي لم أنتبه إلا بعد أن انبثقت من بين شفتي.. أنا خائفة حد يشوفني ..

راقتك عبارتي:

طيب اطلعي وخليك برة الشقة وأنا هدخل أجيب الكتب ..

كان السلم نصف معتم .. وأحياناً لضيقه تلامسنا .. بل ولا مست أنا ملك ردفي .. إعصار كابدت ألا يطيح بي من فوق الدرجات .. وحين كادت

قدمي تتعثر فوق درجة تآكل نصفها تشبثت يدي بخصرك بعفوية غريبة ..
لأفاجأ بيدك أيضاً تعيطني درع حماية .. ليلتقي شعاعين انبثقا من عينينا
للحظات قبل أن أرتد سريعاً إلى داخلي .. كأننا خافتين لكنهما مفعمان
بدلالات عميقة .. لحظتها شعرت بأن يدي فعلت الصحيح حين تشبثت
بخصرك .. وكان رد فعلك أيضاً العفوي بغير التباس صحيحاً .. ليختال في
داخلي سؤال يهزأ ربما بنا: حين يتعلق الأمر بمشروع اتحاد أبدي بين رجل
وإمرأة .. ألا تكون العفوية هي الطريق الأسلم للاختيار ..! كان بجواري
سور السلم .. العقل يقول أن ألوذ به .. إلا أن شيئاً ما داخلي لا أدري كونه
.. لكنه حكيم .. دفعني لأن ألوذ بك أنت ..! وسرعان ما انشقت العتمة عن
وجه أبي الصارم .. شدني من جوارك إلى الخلف .. أتبعك عبر الممر الطويل
الذي انتهى إليه السلم بخطوات متوجسة كما أمرني .. وحين دلفت إلى ممر
صغير وتمتت:

— هي دي يا ستي شقة تلميذ الثانوي!

تحجرت أقدامي .. بينما خطوت أنت نحو الشقة و انشغلت بفتحها .. وحين
تم لك ذلك استدرت لتدعوني إلى الدخول .. لتتبع عيناك على بنطالك فإذا
به متضخم عند نقطة تلاقي الساقين .. يكاد يتمزق بفعل هذا الشيء
الذي يتوحش أسفله .. فأشجحت بعيني خجلاً .. لأشهر في وجهك لا صارمة
أشعر أنها أخصتك .. تأملتني للحظات .. وداخلك نهب لمشاعر الحيرة: فلم
صعدت إذن معك ..! سأقول لك الآن ما لم أقله لك من قبل .. احساس
غامض بالإثارة أن أجد نفسي على باب شقة اصطحبني إليها رجل .. ليس
أي رجل .. بل هذا الذي أحب .. إنها مشاعر الأنثى المبتلية بأنيميا الحب في
غرفة نومها .. أنيميا تزلزل ثقتها في أنوثتها .. ودوماً يراودني هذا السؤال:
أيمكن أن أكون امرأة مطلوبة لذاتها بعيداً عن الزواج والمآذون .. فلماذا
إذن لم ألب نداءك وأدلف خلفك إلى الشقة ..! الأنثى فعلتها حين رشقتها
بنداءك لتقاوم كي تستسلم .. في أحلام يقظتها ولا شيء خارج أحلام

يقظتها.. حيث تتأهب دوماً الدكتوراة زينب الحناوي .. الإنسانية المدججة
بأسلحة الأب والدين .. لتزجر شياطين الأنثى بغير هوادة .. لكن الأنثى في
صحاري ليالي الحرمان لا تكف عن التوحش.. معذبة بتوقها لهذا الشيء
الذي تضخم بدماء الحب تحت بنطال الرجل الذي أحبت..

هل أفرط في الحديث عن الجنس ..؟ أمر يسبب لي شيئاً من القلق..
وأخشى أن أكون مختلفة جنسياً .. أو أعاني من إدمان جنسي إن لم يكن
متاحاً بالممارسة فبالكلام والتفكير .. لكن يبدو أنني لست وحيدة في
هذا الشأن .. دراسة علمية أجراها باحثون فرنسيون منذ عشرين عاماً انتهت
إلى أن الإنسان يفكر في الله مرة كل عشر دقائق وفي الجنس مرتين
..!! ولأنك مولع بالتفسير الجنسي للحياة .. "لا أظن أن هذا قدحاً .. فعلماء
النفس يقولون إن النشاط الجنسي هو أرقى وأجمع وألذ وأرفع نشاط يقوم
به الإنسان حيث ينصهر بكامله ويتورط جميعه .. نفسه وعقله وبدنه وروحه
وماضيه وحاضره ومستقبله .. فكل درجات الوجود كائنة في هذا الفعل
المبهر " أقول لأنك مولع بالتفسير الجنسي للحياة .. سوف يكون تفسيرك
ذاته تفسير عالم النفس " ويلهيلم ستيكل " أن الابداع الأدبي بالنسبة لأديب
يعاني هو غداء .. وبالتالي فرسالة د. زينب الحناوي عمل أدبي تقتات منه
وجبة عاطفية دسمة في مواجهة حرمانها .. كي تظل تحيا كإنسانة ..
فتحن نكتب فقط ونبدع حين نغمس أقلامنا في نهر الحرمان ..

هذا سيكون تعليقك .. وربما تستشهد أيضاً بما قاله بلزاك: إن أيروس
– إله الجنس – كان الأجدر بأن يكون الماسك بقيثارة الشعر وليس أبو
للو..!

.. الآن .. بل ومنذ سنوات ربما يصل عددها عمر حياتنا الزوجية يلتف حبل
من المشاعر القاسية حول عنقي نهاراً .. ليلاً .. فإن حاولت الانفلات منه
بالنعاس سرعان ما أستيقظ فزعة على شبح ضخمة يدنو من عنقي ليجذب
الحبل بعنف .. أهذا شبح هشام .. ؟!

هل تفوح عباراتي برائحة الكراهية له؟.. وأكره على ما يبدو نفسي ..
هذا ما أشعر به أحيانا .. خاصة في تلك الليالي التي ينهار جلال صمتها
بانفجارات أمعائه ..!! فيشتعل فراش أرقى بغازاته لتعلو سحب الكراهية
في علياء روعي ..!

تدهشك كلماتي .. تثير استغرابك .. تهتف في أعماقك .. ما هذا الذي
تقوله الدكتور زينب ..!! أو ليس هشام سوى انسان! وهل الدكتور زينب
لا تفعل هذا ؟..! هذا ما كان يعذبني .. أن لي مؤخرة وأمعاء .. وكأنه برهان
ربي أنني لن أكون ملاكاً أبداً .. الملائكة لا يتسللون إلى المرحاض خلسة
مثلما أفعل .. وأجهد نفسي بقسوة حتى لا تتجاوز أصوات هواني الجدران
فيلتقطها هشام .. وفي الكلية أمضي يومي أقاوم فكرة دخول المرحاض
.. حتى لا يراني أحد من زملائي أو الطلبة فيتبادلون التعليقات الساخرة
حول فعلتي الشنعاء! أمضيت عمري في عالم رسمت خطوطه الأولى أبه
هدى .. عالم نحلق فيه بأجنحة الملائكة .. نتنفس أوكسجين الحب .. ولا
تنفث تلك الغازات الكريهة .. عالم بلا مطابخ ولا مطاعم ولا حمامات ..
أغوص في لجج عالمي النوراني هذا حتى أنني لم أكن أتخيل أنك أو
عبد الحليم حافظ أو ثومة أو عبد الوهاب أو فيروز أو نجاة .. وكل أفراد
قبيلتي التي أتوحد بهم برياط بلازما الرومانسية يمكن أن يشتموا طريقتهم
كل صباح إلى المرحاض .. وفي الجامعة حين استضافت كلية الآداب
الدكتور عثمان أمين ليحاضر عن فلسفته "الجوانية" لم يجد ما يعبره عن
سخطه على الحالة الفكرية العربية سوى بوصفها ب. ب. .. عفوا ب" التجييص
الفكري" .. لحظتها انتابني دوار عنيف .. وحين أفقت قليلاً شغلني خاطر
وحيد .. لو كانت فلسفة هذا الرجل هي طريقنا المفروض بالورود إلى الجنة
لما خطوت عليها خطوة واحدة .. حتى حين نضجت رؤيتي وبدأت أرى أن
القضيب ليس بالشيء الذي يثير الغثبان أو التناثر مع الرومانسية .. بل وأردد
– فقط في دواخلي – أنه ليس في هذا العالم أمتع من قضيب حبيب ينغرس

في جسد حبيبة .. وأن عضو الحبيب يمكن أن يخصب حقول الرومانسية تحت جلد الحبيبة لتطرح أزاهير النشوة .. نشوة الروح والجسد لتعقب فضاءات الإنسان بشطريه المتوحدين .. الرجل والمرأة بشذى الجنة .. هذا التطور الإيجابي الذي انتهى بتطبيع تلك العلاقة التي ظلت متوترة داخلي بين الجسد والروح في غرف النوم منذ سنى مراهقتي وحتى بعد مضي شهور عديدة من زواجي لم يواكب قبول روحي لنزعات الجسد في المرحاض .. حتى حين أبديت تنازلاً من أن أكون ملاكاً .. واكتفي بالانتماء إلى ما يراودني أحياناً عن حلقة مفقودة بين البشر والملائكة .. لم يكن ذلك كافياً لتحقيق المصالحة المنشودة داخل دورات المياه!

ذات مرة سألتني طفلتي شادن .. " ليس هذا اسمها في الأوراق الرسمية .. لقد سجلها والدها في شهادة الميلاد باسم عائشة .. حاولت أن أشرح له أن شادن كلمة عربية أصيلة تطلق على الغزال الصغير .. لكنه كان يتابعني بعينين متشككتين في إيماني .. فقط لأنني أختار اسماً لابنتي غير اسم أم المؤمنين .. وتوجه إلى الوحدة الصحية بالقرية ليسجل في خانة اسم المولود عائشة لكنني لم أدعها أبداً سوى بشادن" .. سألتني وهي تتابع عبر النافذة جنازة جارنا عم مسعود ..

_ أنا شفت الناس بيحطوا عمي مسعود في الصندوق .. همه هيوذوه
فين!

أشفقت علي سنواتها السبع من أن تصطدم بمشهد مثل هذا فجدبتها بعيداً عن النافذة وأنا أجيها:

_ هيدفنوه في التراب ..

فأصرت على مواصلة طرح أسئلتها المرهقة ..

_ مش التراب دي إللي عند البحر ورا مدرستنا ؟ ..

_ أيوه

– أمال إنتى قلتيلي قبل كده إن إللي بيموت بيروح عند ربنا في السما ..
و عمي مسعود ليه مش هيطلع عند ربنا في السما؟
كنت أعاني لحظتها من إحدى نوبات القولون المزعجة فقلت لها.. ربما
لنفسى وأنا أتجه إلى المرحاض:

– لحكمة من ربنا .. عشان مش عاوز يلوث السما بوساخات الجسم!!
وبياخد الروح بس عنده لأنها نضيفة وطاهرة!!

لكنها أبهرتني بما نجحت فيه رغم سنواتها القليلة وفشلت فيه أنا..
كنا نتابع ذات مساء وبعد أن انتهت من واجباتها المدرسية برنامجًا
للأطفال طرحت فيه مقدمته هذا السؤال: ما هو أهم اختراع توصل إليه
الإنسان؟ تطلعت إلى شادن وأنا أترقب الإجابات المعتادة لمثلها السؤال:
الطائرة.. الصاروخ .. التليفزيون .. لأصح لها الإجابة بما يغيب عن الكثير
من الناس.. حتى المتعلمين .. بل وبعض المثقفين: أهم اختراع هذا الذي
توصل إليه الإنسان البدائي من عشرات الألاف من السنين حين أتى بقطعة
من الصخر وحك بها قطعة أخرى ليتوالد الشرار .. الشرارة .. النار هي أهم
اختراع في تاريخ البشر لأنها فتحت الباب أمام توليد الطاقة .. وبالتالي
كل الاختراعات التي توصل إليها العلماء بعد ذلك من قطارات وسيارات
وصواريخ .. لكنني قبل أن أنطق داهمتني شادن: الحمام هو أهم اختراع ..!
أنا مش عارفة ياماما قبل الحمامات الناس كانت بتعمل أيه!

هل قلت داهمتني ..؟ بل التعبير الدقيق أنها أبهرتني .. شادن بسنواتها
القليلة تصالحت مع نفسها وافرازاتها باختراع الحمام .. مواسير وصنابير
وشطافات وسيفون .. أدوات كثيرة لإخفاء معالم فعلتنا نقلها مخرجًا
لمأزقنا مع الذات .. مع الجسد .. ونكايد لنجعل من مراحيضنا مكانًا
مريحًا بل ومبهجًا بالروائح الجميلة وياقات الورود التي تتناثر في أرجائه..
والسعي لابتكار نماذج مبهرة من " الألبانوي " و "سيراميك وقيشاني بألوان
سحرية تسر العين ونحن نمضي الوقت في التخلص من فضلاتنا ..! وربما

عبارة شادن كانت وراء ردي الحاد على هشام حين "ضبطني" وأنا أتسلل إلى الحمام بقدمي اليمين .. فترقب خروجي لينهرني قائلاً:

– كم مرة نبهتك إن ده مكان تسكنه الشياطين .. وعليك أن تدخلي بقدمك اليسري وأنت تيسملين أعود بالله من الخبث والخبائث ..! انتظرت إلى أن فرغ من محاضرتة لأقول له بعدة: ده كان زمان .. لما كانوا بيعملوها في الجبل والخلاء .. الحمامات الآن أنصف وأجمل من غرف النوم في بيوت كثيرة..!

وأظنه وراء أزمتي تلك .. فما كان قواوني عصيباً قبل زواجي منه .. الآن لا يمر يوم لا أعاني فيه من فصول القولون الباردة .. وما يستتبع ذلك من أذعاني يأساً لتلك العلاقة التي تنمو بقوة بيتي وبين المرحاض رغم تفرزي.. وكثيراً وأنا رهن جلسات معاناتي داخله أتساءل ساخرة: أهدا أنا.. الدكتور زينب رضوان التي كل خلية فيها ترتيلة من صلوات أبي القاسم الشابي في هيكल الحب؟! أو هذه وظيفة مؤخرتي التي قلت أنت عنها في إحدى رسائل غوايتك: تلك كانت إرادة ماعت .. آلهة العدالة في مصرنا القديمة والتي ماظلمت أحداً .. أن تمنح ردفك نصف محصول الإثارة في العالم وتوزع النصف الآخر على كل النساء!

.. كيف لي أن أقبل هذا .. أن مؤخرتي هي فخر مملكة أنوثتي .. هذا في الحقيقة هو دورها .. نفت قاذوراتي في المرحاض ..؟ أختي فاطمة مقتونة بمؤخرتها .. تقول إنها أكثر مفاتها استحواداً على اعجاب مدحت .. حتى أنه حاول أن يخرقها مرة .. لكن هذا لم يكن ممكناً بسبب ضخامة عضوه ..!

أيضاً هشام حاول .. ليلتها نهضت من فراشي محمومة بالغضب لألوح له بالآية القرآنية: نسأؤكم حرث لكم فأتوا نساءكم من أني شئتم .. ليتته .. أنه لم يأت نص صريح بالنهي عن ذلك .. فواجهته بالحديث الشريف: من أتى امرأته من دبرها فهو كافر .. ليواصل تهتهته: حديث ضعيف!!.. إلا أنه

لم يكرر فعلته تلك.. لكنني لم أكف عن التفكير فيما حدث .. لو أنا مفرمة بهوشام هل كنت سأواجهه بكل هذا البركان من الغضب حتى لو رأيت في مثل هذا الفعل امتهاناً لأنوثتي؟ ومن يدري .. ربما كنت أنت مثل هشام ومدحت .. ربما كل الرجال هكذا .. هل تتذكر تلك الظهيرة التي ضببتك فيها وأنت تحملق في مؤخرتي .. بينما كنت أنحني لألتقط كتاباً سقط من حقيبتي في المكتب الذي لم يكن يضم أحداً سوانا ..! لحظتها قلت ضاحكاً أنك كنت تمارس تمريناً رياضياً بعينيك لتتعم بعمر أطول .. سألتك في فضول حاولت قمعه ولكنه ساخرة: أي تمرين هذا الذي تمارسه العيون ..! فقلت إن باحثة ألمانية أثبتت من خلال دراسة علمية أن تطلع الرجل إلى أرداف الأنثى لمدة عشر دقائق يومياً يطيل عمره بمعدل خمس سنوات ..! ألم تكذب ..؟ هذا ما شعرت به حينها .. لكن تلك المؤخرة التي تثير اعجابك هي ذاتها سبب أزمته الإنسانية.

.. حتى أنني ظننت أن تاريخي المأزوم على غير ما أردت تاريخ مؤخرتي..!!

مع نوبات الامساك المذلة التي تجعلني حبيسة المرحاض كل يوم عدة ساعات .. وربما بلا جدوى .. ألجأ إلى وسيلة شيطانية .. أدس فوهة "الشطاف" في فتحة الشرج كالحقنة الشرجية .. أراحني هذا كثيراً لكن ليس دائماً .. فبعد عدة أسابيع أذهلني استعصاء أمعائي على طوفان المياه المندفَع فيها عبر فتحة الشطاف.. تتزايد معاناتي.. أحرك جسدي يميناً ويساراً .. إلى الأمام فالخلف .. دون جدوى .. أدس اصبعي في فتحة الشرج وأنا أبكي.. ليس ألماً .. بل احساساً بالمهانة .. ومع ذلك تواصل أمعائي معاندتها .. تعاودني الأم البواسير التي أصبت بها خلال ولادتي لابنتي .. لتتوحش مذلتني! انتقم مني مؤخرتي لاحتقاري لها وتوقفي الغريب إلى الملائكية ..! أجترأ لأمي في صمت .. لكن أوجاعي من الامساك والبواسير ما عدت بشاردة على احتمالها .. " .. ياه .. ما أقدرنا! تلك العبارة

تقيأتها في قرف وأنا ألملم كياني المبعثر في المرحاض بعد نوبة امسك حادة .. لكنني حين غادرته لفحني المذياع بنجوى ثومة " الحب كله حبيته فيك وزماني كله أنا عشته ليك .. فاستطردت: إلا إذا أحببنا! وأصبحت تلك حكمتي الماثورة في الحياة: الإنسان يبلغ زهوته حين يحب أو يبدع أو يفعل خيراً .. لكن حكمتي تلك التي لا أكف عن ترديدها على مسامع من أعرف ومن لا أعرف لم تتسني أبداً مأزقي الوجودي .. ذاتي الممزقة بين وجدان ملائكي يسبح فوق السحاب وجسد تعصف به الأم قاذوراته في المراحض"

طرقت باب طيبة .. ليس لأن تلك إرادة الشيخ هشام ألا أتعرى أمام طبيب.. فما أخبرته أبداً بمعاناتي مع الامسك خجلاً .. وللسبب ذاته طرقت باب طيبة لا طبيب ..!

لكنها تفجعني! تدس اصبعها في مؤخرتي لأزلزل عيادتها بصرخة فشلت في قمعها ..

ولا يبدو علي وجهها الطفولي أية علامات تتم عن احساسها بالقرف..!!
بالهؤلاء الأطباء ..!!

تواجهني بنقيصتي التي تحول دون أن أكون .. ليس الكائن الملائكي الذي طالما حلمت به .. ولا حتى ما تخيلته كائناً من كائنات الحلقة المفقودة بين البشر والملائكة .. بل مجرد إنسانة عادية .. تأكل وتشرب وتفرز بسهولة فضلاتها صباح كل يوم بالمرحاض خلال دقائق ..

– هناك شرح بسيط في فتحة الشرح .. إنت في حاجة إلى توسيع..!!
توسيع ..!! توسيع ماذا ؟.

– مفيش داعي للقلق .. مش محتاجين عملية جراحية.. فيه وسيلة ثانية أفضل ..!
– وسيلة إيه..؟

– جلسات أسبوعية هنا في العيادة ..

استسلمت لها .. في الجلسة الأولى بعد أن تمددت على السرير قالت:

– نامي على جنبك واكشفي الكريمة ..

– أكشف أية..؟

تجذب وهي تبسم سروالي إلى أسفل .. يا جهلي ..! أستاذة النقد والبلاغة لا تعرف ماذا تعني "الكريمة"؟ إنها اسم التدليل للمؤخرة في لغة طبيبتي..! تدس اصبعها الذي غمسته على ما يبدو في كريم مرطب بفتحة "الكريمة" لينزلق بقدر من المشقة لم يكن كافياً على أشغال صراخي.. تحرك اصبعها في كافة الإتجاهات حتى أصبحت أشعر بشيء من الاستئناس لوجوده .. أهذه جلسات التوسيع ..؟ لا بأس بها إذن! أخرجت اصبعها .. ونزعت الغطاء البلاستيكي من يدها لتلقي به في سلة المهملات وهي تسألني:

– حضرتك بتشتغلي إيه؟ ومضت في طرح الأسئلة عن حياتي الزوجية..

خمنت أنها تملأ بحديثنا فراغ وقت يفصلها عن شيء آخرأت ..

وأدركت مأربها .. الكريم الذي غمست فيه اصبعها كان مخدراً

موضعياً .. إذن ثمة ما يستدعي الصراخ أت ..

– خدي نفس عميق ..

وما أن فعلت حتى شعرت بشيء ضخم وشديد الصلابة يخترق مؤخرتي ..

أكابد لأصرخ .. أعجزني الألم عن الصراخ لتنهال دموعي في صمت:

– عندي لحد ثلاثين ..

هل أجد في العد وسيلة لنسيان ألمي ..؟ ٥٤٣٢١ ٥٤ .. لماذا لا تستأصلون

تلك المؤخرة اللعينة ..؟ تسحب قبضة الشيطان من سراديب السلفية ..

ليغمرني ارتياح عميق ..

– ميعادنا بعد أسبوع ..

أسأل في مذلة :

_ مفيش وسيلة ثانية..؟

_ مع كل مرة هيقل الألم ..

تكذب علي .. نفس سعير قبضة الشيطان في مؤخرتي .. بعد خمس جلسات وضعت أمامي شيئاً غريباً .. خابور خشبي برأس مسحوية أكثر سمكاً في منتصفه من قضيب مدحت ..

سألتها في رعب:

_ إيه ده..؟

_ زي ما إنت شايفة .. روحي لأي نجار علشان يصنع لك واحد زيه .. استخدميه مرة كل يوم .. هذا أفضل من جراحة التوسيع ..!!

وددت لو أبيض عليها .. انسحبت لأعواد التشرنيق في قوقعة أوجاعي.. إلى من أذهب ..؟ كان لايد من أن أطل من شرنقتي على صدر حنون أبته الأمي الغريبة .. هاتفت أختي فاطمة .. انفجرت ضاحكة .. نهرتها بجدة .. فقالت وهي غير قادرة على قمع رغبتها في الضحك:

_ طيب إذا كانت مسألة خوابير ما عندك هشام يحل لك مشكلتك ..! ولا هيقولك دا حرام ..! في أوض النوم يا دكتورة مفيش حرام وحلال بين راجل ومراته..

هشام ..!! حتى لو حاولت الآن اغواءه .. فهل يفني بالفرض ..!!

بدأت استخدم أصابعي .. اصبع .. اصبعين .. ثلاثة بصعوبة .. وداومت على استخدام بعض الكريمات القوية لمعالجة البواسير .. كانت حرياً للتخلص من الأمي نجحت فيها أخيراً .. إلا أنها تعاودني من حين لآخر .. فأواجه طلائعها وقبل أن تبدأ غاراتها الشرسة بالمراهم القوية .. لكنني مازلت أعاني من نوبات الإمساك .. بدأت أنقب في شبكة الانترنت عن وسيلة لاتقتضي التوجه إلى أطباء .. عثرت على ضالتي في أحد المواقع الطبية ..

تمارين لتدريب وتنشيط الأمعاء باستخدام الكمبيوتر .. اتصلت بالجهاز الهضمي في المنصورة وأنا أتوارى خلف أسلاك الهاتف .. أكد لي طبيب وجود تلك التقنية لديهم .. بحثت بين فوائم الأطباء المناوبين عن طيبة .. لن أبوح بمأساة مؤخرتي أبداً لرجل .. وجدت .. كشفت لها في خجل مما أعاني.. بعد إجراء عدة فحوصات سألتها في قلق:

– فيه عيب خلقي ..؟

فأجابت بما أراحني:

– أبداً .. بس فيه بعض الكسل في حركة الأمعاء .. التدريبات ممكن تكون مفيدة ..

رددت في قلق:

– ممكن .. يعني الأمل ضعيف..؟

– في الحالات دي الأمر بإيد المريض نفسه ..

استسلم لتعليماتها .. اضطجع على جنبي .. بحيث تبدو مؤخرتي في مواجهة لتدس أنوباً رفيعاً ينتهي طرفه الآخر بجهاز كمبيوتر .. تطلب مني أن أخذ نفساً إلى الداخل .. أشعر بسائل لزج في مؤخرتي:

– حاسة برغبة في دخول الحمام ..؟

يا لعاري .. كانت قد طلبت مني قبل أن آتي أن أتعاطى حقنة شرجية وشرية زيت خروج .. لأنظف امعائي جيداً ..

– أنت متأكدة أنك فرغت كل ما في أمعائك قبل ماتيجي ..؟

رغم أنني غير متيقنة قلت نعم ..

تستمر الجلسة ما يقرب من ثلث الساعة .. ثماني جلسات عبر شهرين خططت لها السماء لتذكرني بما لا يجب أن أنساه أو أفر منه .. أسوأ ما في إنسانيتي .. حتى أكف عن التطلع إلى الملائكية .. تجتاحني مشاهد ملائكتي حين يتعرضون لمرض عضال ويحزم الطبيب أمره .. لا بد من

عملية عاجلة .. حلیم في حكاية حب .. وفاتن حمامة في فيلم لا أتذكر اسمه .. والعملية تقتضي إفراغ الأمعاء من قاذوراتها .. أكان لديهم أمعاء وقاذورات! حين تألفت مع الطيبة .. سألتها في تعجب:

– بعض الناس بينظروا إلى مهنة الطب بشيء من الرومانسية .. لكن .. عقوفاً أنا مش شايفة في عملك أي رومانسية .. ما بتحسبش بالتحرف..؟
تتجاوب معي ربما لتحقيق مزيد من الألفة كجزء من العلاج:

– ده هو قانون الحياة .. مدخلات ومخرجات .. ومكونات المخرجات ما بتختلفش عن مكونات المدخلات .. مواد كربونية على هيدروجينية على .. لكن التفاعلات الكيميائية هي اللي بتمنحها الصورة دي .. والمخرجات زي ما إنت عارفة بتتفاعل مع البيئة .. التربة .. لتدخل في الزراعة مخصبات .. فتمو المحاصيل وتطرح الغذاء اللي بناكله..! عارفة رواد الفضاء يبشربوا أحياناً إيه! بولهم إلیي بيتم إعادة معالجته..!..

انتهت الجلسات بغير تحسن كبير .. لكنني تعلمت من الممرضة كيف أفعل تدريبات القولون تلك في مرحاض بيتي .. لأحرز في النهاية تقدماً أسعدني .. أصبحت أمارس وإن كان بصعوبة شديدة عملية الإخراج بغير شطاف وبدون ملينات .. ياه كم أنا سعيدة .. ألا يصيبك هذا بالاستغراب .. الدكتور زينب رضوان التي كانت تتنشي بقصيدة شعر للامارتين أو أبي القاسم الشابي أو عمر بن أبي ربيعة .. أصبح ما يسعدها صوت فضلاتها وهي تخرف في عين المرحاض ..؟ وما أكثر أسماء أدوية المعدة والقولون وعسر الهضم التي تزاخم بشراسة أغاني حلیم وثومة وفيروز في الذاكرة..!

لكن .. حتى لو كانت تلك حقيقتنا .. وهي يقينا حقيقة مخجلة .. تماماً مثل حقائق أخرى نعرفها وحين صدمنا بها هنري باربوس في روايته الجحيم.. لم نطق ما يقول – أو ليس من الرقي إن داهمتنا الأمعاء بإنذار لإحدى انفجاراتها أن نسرع بعيداً ونتوارى عن الأنظار؟ ورغم ذلك كثيراً

ما كنت أتساءل في حيرة: ترى من فينا المنتمي ومن اللا منتمي .. أعني هشام وأنا!

خبر طريف قرأته منذ سنوات .. السلطات اليابانية اكتشفت أن ثمة سبباً غريباً لإهدار المياه .. الخجل .. خجل النساء .. إن دخلت إحداهن المرحاض تجذب السيوفن مع كل مرة تخرج فيها صوتاً لتجذب زعيق أمعائها بصوت تدفق المياه ..!! أظنهم لم ينهروا النساء على أفعالهن الحمقاء تلك .. بل لجأوا إلى وسيلة طريفة .. تركيب جهاز تسجيل في الحمام يث قطعاً موسيقية لفنانين يابانيين وعالميين لتطفي موسيقى بيتوفن على موسيقى نداء الطبيعة .. لو قرأ هشام هذا الخبر لأثار دهشته .. ليس لرقى اليابانيين .. بل لتفاهاتهم .. إنه لا يرى في الأمر ثمة مشكلة .. إن أمعاءه الثرثارة لا تختار أبداً الوقت والمكان المناسبين لثرثرتها .. على مائدة الطعام .. في الفراش .. في السيارة .. يبدو أنه يظن أنه طالما نحن زوجان .. فهذا يعطيه الحق أن يجعل مني امتداداً للمرحاض .. ينفث في وجهي .. بل ووجه ابنته غازاته الكريهة .. أكابد في تجاهل ما يحدث .. وفي داخلي أكابد كي تتكيف روحي مع ما يحدث .. دون جدوى .. أهي أزمتي ..؟ .. الدكتورة زينب الحناوي التي تمردت على بشريتها .. أم أزمة هشام النسخة الكهفية الأولى للإنسان ..!! أم أزمته نحن الاثنين حين فشلنا في أن نلتقي عند الوسط الحسابي المنطقي جداً .. الكائن الأرضي المتحضر ..!!

وأصارك القول إنني أخشى أن يكون حديثي عن غازات زوجي هروباً ربما من شيء ما أكثر وجعاً في حياتي معه؟ ورغم رفضي لتلك العبارة التي تنتهي إليها دوماً أبحاث فرويد: فتش عن الجنس ..!! إلا أنني كثيراً ما أتأمل العبارة وأنا أتصفح كتاب حياتنا معاً .. ومنذ أيام قرأت بحثاً لفريق علمي مصري ينتهي إلى أن ٦٠% من مشاكلنا الزوجية لها جذور جنسية .. وأنا وهشام من ضمن الستين في المئة! أتذكر في صباي هذا الحوار الذي دار بين أبي والنجار الذي أتى به ليصلح باب الدوار .. سأل النجار أبي قبل

أن يختبر الباب:

_ فيه إيه يا شيخ رضوان ..!

_ بيزيق..!

قال النجار:

_ جايز المفصلات عاوزة تتزيت ..!

_ يا ما حطيت زيت ومفيش فايده، فحص النجار الباب .. ثم قال:

_ الدكر مش ماشي مع الفتاية .. علشان كده فتحه صمب وبيزيق..!

أهذا سبب أزمتي مع هشام .. " الدكر مش ماشي مع الفتاية " ؟ فاطمة لديها تفسير آخر: هشام دا خام وعلى نياته .. الست منا بتبقى محتاجة راجل فاهم كويس في المسائل دي ؟

وهشام ليس هذا الرجل الذي تتحدث عنه فاطمة .. دعني أحكي لك تلك الواقعة الطريفة التي تشي بالكثير من ملامح شخصية رجلي .. جاء لزيارتنا ذات ليلة عميد شرطة من هؤلاء المعنيين بمسألة الجماعات الإسلامية .. عرفت هذا من خلال تلصصي على حديثهم من خلف باب غرفتي .. كان ثمة آخرون من قيادات جمعية أحباء الرسول .. وبدا عميد الشرطة متمسكاً في حديثه .. ربما هي وسيلة يتعلمونها في كلية الشرطة لكسر الحواجز النفسية التي تفصلهم عن الآخرين .. ومنح هؤلاء الآخرين الاحساس بالفخر لأن عميد شرطة يتبسط معهم في الحديث .. لا أدري .. كان الحديث عن سيارته التي تعطلت واستدعى هشام ميكانيكي من القرية لفحصها .. قال الضابط:

_ يا أخي العربيات دي زي النسوان .. الاتنين بيتركبوا .. والاتنين لا إنت

طايقهم ولا إنت تقدر تستغنى عنهم!

استقبلوا دعابته بنوبة من الضحك .. ربما لا يخلو بعضها من الافتعال .. لكنني في مكثي كبحت بصعوبة رغبتني في الضحك بلاغة التشبيه

الذي أيضًا سرت جمالياته في جسدي موجة من الإثارة قمعتها الدكتوراة
زينب رضوان بشدة احتجاجًا على تلك اللغة المبتذلة التي يتحدث بها عميد
الشرطة عن النساء!

ضحكاتهم حفزته على أن يواصل ..

– مراتي بعبيها .. بس معكناني باخواتها وأولاد أخواتها .. كل شوية
جايين وعاملين هيصة .. مش بعرف أنام .. زعقت لعيل منهم .. فغضببت
وراحت عند أهلها .. مش عارف أعمل آيه معاها !!

فقال أحدهم:

– عليك يا باشا بسنة الله ورسوله .. واهجروهن في المضاجع .. وإذا لم
يفلح الهجر اضربوهن ضربًا خفيفًا .. هذا خير علاج لمخلوقات خلقن
من ضلع أعوج ..

– ما هي علشان اتخلقت من ضلع أعوج سابيت البيت .. يبقى إيه العمل
دلوقتي ..؟

قال أحدهم:

– الصلح خير يا باشا ..!

قال الباشا ضاحكًا:

– إزاي واللي كان بيصالحها مات!

لم ينتبه هشام إلى اللكنة الساخرة فقال باهتمام:

– رحمة الله عليه .. عمومًا يا باشا فيه غير المرحوم أولاد حلال كثير!
اشتعل المجلس بمهقاتهم .. لا أدري لماذا .. وزاد هشام:

– صحيح يا باشا .. أهل الخير والمروءة بين المسلمين كثير .. وبإذن الله
إذا قصدت واحد منهم مش هيخذلك ..!!

ولا أدري لماذا ارتفعت قهقهاتهم؟ حكيت الموقف لفاطمة حين جاءت
لزيارتي .. فكاد يغمى عليها من الضحك .. فسألتها في دهشة:

– إنت هتعملي زيهم ..!! إيه إللي بيضحكك!

فقالت وهي لا تستطيع أن تسيطر على نفسها:

– هشام هيفضل طول عمره كده أبيض .. مش فاهم حاجة .. وإنت
كمان .. الطابط، لما قال إللي كان بيصالحها مات كان بيقتصد
عضوه ..!

شهقت فيها في دهشة:

– وإنت إيه إللي عرفك بالحاجات دي ..!؟

– يعني مرات واحد زي مدحت .. هتكون إيه!

– هم الرجالة دايماً بيفكروا بالشكل دا!

لكن واتاني خاطر آخر غريب .. رغم تلك اللغة الذكورية المبتذلة
إلا أنها كنز من الجماليات .. هل يمكن أن يأتي الوقت الذي يظهر في
أوساطنا الأكاديمية باحث جريء يحمل كفته على كتفه ويفتش في لغة
الشوارع عن تلك الجماليات .. !؟ أظنك لست في حاجة إلى أن أسرد عليك
شيئاً منها فما تستشهدون به في مجالسكم من هذه الأمثلة يكفي لشغل
جناح في مكتبة الأسكندرية وربما الكونجرس ..

ذات صباح استيقظت المعصرة على جدل شديد .. الأستاذة فادية عبد اللطيف اختيرت من قبل المحافظة رئيسة لمجلس القرية .. أسلاك الهاتف اشتعلت بجدل أعضاء الجمعية .. اتفقوا على اللقاء في منزلنا .. سألت هشام رأيه .. قال: هو مفيش في القرية أو المركز أو المحافظة رجاله علشان يختاروا حرمة! يذكرني برسالة الخليفة العباسي الساخرة إلى مماليك مصر حين عرف أنهم ولوا الأمر شجرة الدر بعد وفاة زوجها الملك الصالح .. فذكرته بأن شجرة الدر هي التي قادت المصريين بحكمة بعد وفاة الملك الصالح إلى أن انتصروا على جيوش لويس التاسع وأسروه .. بينما الخليفة الذي سخر منها ومن المصريين لم يستطع حماية بغداد من جيوش هولاءكو .. وبهدوء حاولت أن أهينه لتلك الحرب التي ستشتعل في لقائهم المرتقب بمنزلنا:

— إيه رأيك يا هشام في ..؟

نظر إليّ متسائلاً في توجس:

— مش فاهم ..؟

قلت:

— مش شايفني أقدر على رئاسة مجلس القرية ..؟

— مفيش في كتاب الله والسنة الشريفة ما يؤيد هذا .. تولية امرأة أمور

المسلمين .. إزاي؟! دا معناه أن تختلط بالرجال ..؟

— معنى كده إنك غير متحمس لعملي في الجامعة ..! أنا شغلي كل يوم

مع الطلاب والأساتذة .

— في الجمعية بيستغل خصومي ده ليتخلصوا مني وكمان كونك مش

لابسة نقاب .. والله أعلم إنني ما سعيت لرئاسة الجمعية إلا لخدمة

المسلمين ..

– وخدمة المسلمين تستدعي إنك تجدد فكر الجمعية ..

– إيه يا دكتور ..؟ برضه بترددى كلام العلمانيين الكفرة.. وكاننا عارفين إن هدفهم من الحديث عن تجديد الفكر الديني هدم الدين..!!

– عارف ابن رشد قال إيه عن المرأة ..؟

– ومين ابن رشد ده ..! واحد منهم ؟..

كدت أصبح في وجهه .. أمير جمعية إسلامية تبشر بما تراه صحيح الدين ولا يعرف من هو ابن رشد ..؟ قمعت السنة الغضب في داخلي حتى لا يفر من بين يدي فأخسر المعركة ..

– مفكر مسلم .. " لم أشأ أن أصفه بفيلسوف .. فكل فيلسوف في منظور هشام وجماعته زنديق وكافر .. وكل فلسفة مروق عن الدين" .. أردفت بهدوء وبغير تعالي ..

– اسمه بالكامل أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد.. ظهر في الأندلس من ٨٠٠ سنة .. وقال عن هذا الأمر: لاخوف على المملكة من قبض النساء على أزمة الحكم فيها ..

وحفزني صمته في أن أوصل غارتي بهدوء:

– ألسنت يا هشام في كثير من المواقف أكثر حكمة وحزم من الرجال.. مش بتبكوا دلوقتي على مجد المسلمين الضائع في الأندلس .. مين السبب ؟.. راجل .. أمير غرناطة .. أبو عبد الله الصغير إللي استسلم وسلم المدينة لست.. إيزابيلا .. ملكة قشتالة .. ولو سمع أبو عبد الله لصوت ست تانية لقاوم جيوش إيزابيلا وما سلم المدينة .. صوت أمه إللي نهرته لما انهار وقالت له: إيك كالنساء على ملك لم تحافظ عليه كالرجال ..

ينصت إلي حائرًا فأوصل متشبثة بهدوئي ..

– والنبي الكريم مش لجا إلى زوجته خديجة يلتمس منها القوة والمشورة
لما نزل عليه الوحي أول مرة .. وصاحبته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل
عشان تسأله تفسير اللي حصل للرسول ..! خديجة كانت خير عون
للرسول في نشر دعوته .. ويا ريتك تتخيل موقف الرسول في مواجهة
قريش بدون سند من خديجة .. وعائشة .. أم المؤمنين ممكن يراودنا
الشك في إيمانها وحسن تصرفها ..؟

– أعود بالله .. ما يقلش ده غير الشيعة الكفرة ..

– عائشة خرجت خلف جيوش المسلمين في موقعة الجمل .

صاح في انفعال:

– ما كانش قصد أم المؤمنين إلا حث المسلمين على عدم القتال مش
التحريض زي ما يدعي الشيعة والمستشرقين.

– طبعاً .. طبعاً .. معاك حق .. لكن قامت بدور .. تركت المدينة إلى
الكوفة لتقوم بمهمة عظيمة ..

بدا مأخوذاً بما أقول .. لكنه فاجأني:

– ومين أدراني إن بعض اللي بتقوليه ده مش اسرئيليات دسها اليهود
علينا لتتولى أمورنا النساء فتضيع الأمة ..!

قلت بصبر:

– سمعت ياهشام عن امرأة اسمها جولدا مائير ..!

– مش دي رئيسة وزراء إسرائيل في حرب العاشر من رمضان ..

– لو كان إلهود بيعتقدوا مثل ما نعتقد أن النساء ناقصات عقل ودين
لما ولوا أمرهم واحدة ست أنقذت دولتهم من الفناء ..!

تحينت الفرصة لألقي في وجهه بأسباب تخلفه وجماعته:

– يا ريت يا هشام تقرأ .. من حسن الحظ عندنا مكتبة تضم كتب من
كافة الثقافات .. ليه مش بتحاول تقرأ منها .. مركزك مهم كرئيس

للجمعية .. وعشان كده لازم تقرأ الكتب دي عشان تبقى متميز
بثقافتك عن زميلك في الجمعية ..

_ أنا محتاج كتبك دي في إيه إذا كان عندي الأعظم .. كتاب الله
والصحيحين والتفاسير وابن تيمية والألباني وغيرهم من شيوخنا
الأجلاء .. كتب تقريني من الجنة ..!!
قلت في صبر:

_ هي كتب مهمة .. لكن فيه ثقافات تانية .. وحضارتنا الإسلامية ما
تأسست إلا باهتمام خلفاء المسلمين بترجمة معارف الشعوب الأخرى
وعلموها إلى العربية .. دا مرة المسلمين انتصروا على جيوش الدولة
البيزنطية في معركة كبيرة .. تعرف خليفة المسلمين طلب إيه عشان
يفك أسرى البيزنطيين .. كتب في الحكمة والطب والكيمياء والفلك
.. وأظنك عارف إن الرسول الكريم أمر واحد من أصحابه بتعلم لغة
قوم كانوا يعادون المسلمين .. ليه..؟ ليعرفهم فيأمن مكرهم .. ولا
مانع من أنه ياخذ ما هو صالح عندهم .. الخندق إلهي أشار به عليه
سليمان الفارسي .. وهو تقليد يتبعه المجوس عبدة النار .. مش هو إلهي
أنقذ المسلمين في موقعة الأحزاب!
قال وهو ينصرف مبدئاً عدم إقتناعه.

_ وتولية النساء مش ده تقليد بيتبعه الغرب العلماني الكافر .. عاوزانا
نطبقه نحن المسلمين ..!!

لكنه مساء حين اجتمعوا حدثهم عن ابن رشد والسيدة خديجة و جولدا
مائير وزاد من عنده مارجريت تاتشر .. إلا أن غالبيتهم احتشدوا ضده
فهزموه.. وداهمني أحدهم .. الشيخ صالح أبو لبدة الذي يواصل صراعه
لاقتصاص رئاسة الجمعية ..

_ هشام الغازولي زي ما إنتم شايفين يا أخوان متهاون في أمور الدين..
ومن واجبي تحذيركم من استمراره في رئاسة الجمعية.

وصاح أحد أتباعه _ الشيخ سيد الهلالي _ في سخرية :

_ كيف يتأتى لرجل القدرة على تسييس جماعة المسلمين وهو مش

قادر على تسييس أهل بيته ..؟!

أيقصدونني ..؟! حتماً سيحمل هشام هذا الشاب ويلقي به من النافذة ..
لكنه فاجأني .. بدا صبوراً على ما لحق برجولته من اهانة واكتفى بالقول
في هدوء:

_ والله يا أخ سيد لو ما كنتش في بيتي لقطعتك حتت أكبرها في حجم

النملة ..!!

تدخل بعض الأخوة للتهذئة .. وتواصلت اجتماعاتهم المحمومة .. آخرها
كان في المسجد .. قبلوا برئاسة الأستاذة فادية لمجلس القرية .. قال لهم
ضباط شريين: هذا توجه عام في الدولة الآن تقوده السيدة حرم رئيس
الجمهورية ولا ينبغي مقاومته! عرفت هذا من خلال تلصصي على مكالمة
هاثمية بين هشام وأحدهم .. لكن ما خفي عني كان أمراً جلالاً .. هذا الذي
داهمتني به زهرة .. بدت مضطربة وهي تدلف إلى حجرتي .. تطلعت إليها
في ارتياب:

مالك يا زهرة .. فيه إيه ..؟

يزداد اضطرابها:

والله مش عارفة أقولك إيه يا دكتورة؟

شعرت بالقلق:

قولي يا زهرة .. فيه إيه؟

أنا سمعت أن الشيخ هشام خطب زكية أخت الشيخ صالح أبو ليدة..!!
يهوي جسدي فوق المقعد الخشبي .. هل أطم الخدود مثل أي فلاحه أمية
تصفع بخبر زواج رجلها بأخرى ..!! ما الفرق .. أنشى يطعنها رجلها في أعز
ما تملك .. أنوثتها!

زكية عبد القادر أبو لبة .. أرملة في الخامسة والعشرين من عمرها ..
 مات زوجها بتليف الكبد .. خلف وراءه ثلاثة أطفال .. صفقة ألقى من خلالها
 الشيخ صالح عبه إعالة أخته وأولادها الثلاثة على عاتق هشام في مقابل أن
 يغمض عينيه عن كرسي الرئاسة .. وربما افتعل أمر تطلعه لرئاسة الجمعية
 لإرباك هشام ودفعه في النهاية إلى القبول بحل المقايضة .. وكله تحت
 لافتة الإسلام .. إعالة اليتيم وانقاذ الأرملة الشابة من غواية الفتنة ..!! لكنه
 التفسير الجنسي للتاريخ .. ألم يكن يفعل الخلفاء والملوك هذا .. يحلون
 صراعاتهم بالمصاهرة ..! هشام وصالح أبو لبة سيسان أمر الجمعية تمامًا
 مثل الملوك .. ودائمًا مواكب المصالحة تسير فوق جسد امرأة ..! للربما أدرك
 الشيخ صالح أن طموحه لاقتناص كرسي الرئاسة لن تباركه شريين .. فلا
 عائلته في منزلة عائلة هشام .. ولا قبل له بتفقات الجمعية .. صحيح أن هناك
 تبرعات لكنها لا تفي بأنشطة الجمعية فيضطر هشام إلى سد العجز .. وهو
 سعيد بهذا .. ميزة لا يملكها غيره من أعضاء الجمعية تعضد من مكانته
 رئيسًا لها .. وكثيرًا ما كان يحشر الحقيبة الخلفية لسيارته بالبط والأوزو
 أجولة الأرز .. هدايا لقادة الجمعية في المحافظة والمركز .. أساليب يداري
 بها ما يعانیه من أنيميا الثقافة الدينية .. فكل ما في ذاكرته الجزآن
 اللذان حفظهما في كتاب الشيخ شحاتة البهوتي قبل أن يلتحق بمدرسة
 الوحدة المجمعّة بالإضافة إلى بضعة عشرات من الأحاديث النبوية .. ومنذ
 رئاسته للجمعية استولى على ركن من مكنتي يدس فيه كل حين كتابًا
 للألباني أو ابن العثيمين .. يعود إليها بين حين وحين كلما أراد أن يبني
 رأيًا حول النقب أو التليفزيون أو الأغاني أو الاختلاط .. وهدفه أن يزيد
 من أسلحته التي تمكنه من الاحتفاظ برئاسة الجمعية .. لكنه لو صمد
 في وجه تطلعات الشيخ صالح لانتهى الصراع على الرئاسة لصالحه .. دون
 أن يرضخ لتلك الصفقة الكريهة .. إلا إذا كان هذا مآربه .. زوجة ثانية ..!
 وضرتي على قدر فائق من الجمال ..! لقد رأيتها .. بل كانت نار الأنثى
 المجروحة بداخلي الوقود الذي قادني إلى بيتها لأراها .. بحثت برغبتني تلك

لزهرة.. التاعت لخططي .. لكنها أمام تصميمي رضخت .. وسألت:

– طيب إزاي ..!!

– أنا سمعت أن شقيق جوزها كان بيربي بهائم لحساب الناس.

– أيوه .. زينهم .. دا اسمه ..

– هنروح أنا وإن بتهم بحجة إن حد من أخواتك عاوز يشاركه في

جاموسة ..

– بس .. بس كده الموضوع مفقوس قوي .. ماهم هيسألوا وليه احنا ما

بنريش .. ودوارنا مليون بهائم! واشمعنى دلوقتي بالذات.

صحت في لوعة :

– ما هو أنا لازم أشوفها ..

تطلعت إلي في اشفاق .. لتباغتي ..

– بتحببه يا دكتورة ..!!

تمتت في ذهول:

– بحبه!!

أكثر من مرة سألتك السؤال ده وما كنتيش بتجاوبي .. بس أنا حاسة

إنك فعلاً بتحببه .

أتجاوز سطوة ضياعي سريعاً ..

– دي حاجة ما لهاش دعوة بالحب يازهرة ..

نعم .. الدم النازف من شرايين كبرياء الأنثى هو الذي يخطط لطريقي الآن ..

لكنه ليس طريقاً .. بل تيهها .. ولا مفر من أن تغوص أقدامي فيه إلى أن أجد

طريقاً آخر للخلاص .. الفوص في التيه الآن ربما بديل عن خيار آخر أحس

بديبه في شراييني .. انفجار في المخ .. جلطة .. ارتفاع مفاجيء في الضغط

أسقط على أثره إلى غير رجعة .. رؤية تلك المرأة خطوة في تيه العبثية .. أعلم

.. لكنها قد تعني لإمرأة مجروحة مثلي الكثير .. شيء ما لا أعرف كنهه ..
لكنه يتجاوز حتى شهوة الفضول..

وكان زهرة أدركت ما بداخلي .. فحاولت أن تقدم حلاً:

– طيب إيه رأيك في كوثر جارتنا .. أهم ناس ما عندهم مش بهائم ولا دوار
.. كوثر صاحبتي ومش هنرفض لي طلب .. وبعدين هي نبيهة وتعرف
تقوم بالتمثيلية صح .. المسألة كده ممكن تبقى محبوكة .

– بس أنا علاقتي بها مش قوية .. يادوب صباح الخير .. صباح النور..

– باقولك دي صاحبتي .. وبعدين هي بتحبك .. بس مش قادرة تقرب
منك .. مش لاقية سكة معاك .. سببي الموضوع دا علي .. كمان هي
كتومة ومش هتجيب سيرة لحد ..

– أيوه .. الموضوع ده مش عاوزه حد يعرفه ..

انشطرت زهرة عني دهرًا .. أكثر من ساعة .. وأنا لا أكف عن مراقبة
البوابة تلهفًا لخطوات عودتها .. ويبدو لأنها أنثى تدرك أهمية هذا العبث
لإمرأة مطعونة .. هرعت إلى شقتي بمجرد أن عادت يسبقها شعاع ابتسامة
النجاح لمهمتها:

– وافقت وقالت لي النهاردة .. واتفقنا إنكم تمشوا على المغربية

– وليه المغربية ؟

– هشام بيروح يصلي المغرب في جامع السنين ويفضل مستني لغاية ما
يصلي العشا .. يعني كده تضمن إنه مش موجود علشان ما يحسش
بحاجة .. وبعدين كمان علشان نضمن إن صاحبتك موجودة في
البيت.. لو كانت مثلاً هتروح تزور أخوها الشيخ صالح فهيكو بعد
المغرب.. بعد ما الليل يدخل ..

– معني كده إن ممكن ما تكونش في البيت ..!

– بإذن الله هنلاقيها .. إللي زي دي ما بتخرجش إلا لزيارة أخوها .. وزي

ما قتلتك .. الزيارات دي بتبقى بالليل.

_ وافرضي كانت موجودة وما طلعتش لنا؟

_ لأ .. كوثر هتملبيها .. على أساس أنها تعرفها وتقول لها الموضوع وهي تبلفه لأخو جوزها .

_ طيب وأنا إيه في الموضوع ده .. ؟

_ إنت قريبة كوثر أو صاحبها .. والفلوس إللي عاوزين تحطوها في البهايم فلوسك ..

_ بس لو وافقوا .. ها تبقى مشكلة ..

_ قوللي إن لك الثلثين وهما الثلث .. في الحالة دي مش هاوافقوا .. الناس بتمشي على النص لصاحب البهيمة والنص للي بيربي ..!

كان يتعين علي أن استسلم لما كان يثير غياني .. ولو لمدة ساعة .. النقاب .. هذا الذي خضت بسببه معارك طاحنة مع هشام الذي كان يحدوه الأمل أن ارتديه يوماً .. ليتخلص من أعظم نقائصه أمام رفاق الجمعية .. تبرج زوجته .. وأي نقاب ينبغي أن ارتديه حتى يكتسب زواجي برئيسهم صفة الشرعية .. نقاب أسود لا يظهر سوى عين واحدة تماماً كقرصان بحر الدماء .. هذا الفيلم الذي شاهدته في التلفزيون مراراً أتذكر تلك الليلة التي عاد فيها من مسجد السنين .. بدأ وجهه مكفهراً .. سألته:

_ مالك يا شيخ هشام؟

وكانه كان يترقب سؤالي بلهفة لينفجر:

_ اسمعي يا دكتور .. إنت بوضعك ده حطاني في موقف صعب قدام أعضاء الجمعية ..

في دهشة:

_ وضع إيه وصعب إيه؟ مش فاهمة ..

_ مش ممكن الجمعية بتخطط لحث نساء القرية على لبس النقاب ..

وزوجة رئيسها متبرجة!

_ فيه حد قالك حاجة الليلة!.

_ هو الليلة بس؟ كل يوم وكل اجتماع .. والشيخ صالح أبو لبدة إللي لا بد لي في الدرّة عشان ياخذ الرئاسة ماسكها عليّ ويحرض أصدقاءه في الجمعية يحرجوني .. وأكثر من واحد الليلة قالها: إزاي هنحكم حريم المسلمين ورئيسنا مش قادر يحكم بيته! .. لازم يا دكتورة تتقبلي .. لازم ..

_ ما تجبرنيش علي حاجة مش موجودة حتى في الشرع ..

_ إزاي مش موجودة في الشرع ..! أمال حديث ابن عباس بيقي أيه؟

_ مفيش حديث بيحرض علي النقاب ..

_ إللي نقله علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وإللي بيقول فيه:

أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن لحاجة أن يغطين وجوههن من فوق رجوسهن ويبيدين عيننا واحدة "

_ الكلام إللي قاله علي بن أبي طلحة مردود عليه من ناحية السند وكمان المتن .. لأن فيه واقعة حصلت أمام ابن عباس نفسه تنسف الكلام ده .. اسمع يا هشام أنا مستعدة أتناقش معاك بعقل مفتوح وإذا أقنعتني هالبس النقاب من النهاردة ..

_ واقعة أيه ..؟

_ إللي رواها سليمان بن يسار أن ابن عباس أخبره أن امرأة من خثعم جاءت في حجة الوداع تسأل النبي صلى الله عليه وسلم عما إذا كان يجوز لها أن تحج نيابة عن أبيها الضعيف .. وكانت امرأة جميلة الوجه .. وكان الفضل بن العباس يركب في ذلك اليوم خلف رسول الله على ناقته فجعل ينظر إلى المرأة وتنظر إليه .. فجعل رسول الله يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر .. وفي بعض ألفاظه: فلوى رسول

الله صلى الله عليه وسلم عنق الفضل.. فقال له ابن عباس: يا رسول الله لماذا لويت عنق ابن عمك؟ فقال صلى الله عليه وسلم " رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليهما " .. وفي رواية " فلم آمن عليهما الفتنة " والحديث ده بتمامه في الصحيحين .. فيإزاي عرف ابن عباس أن المرأة جميلة وعلى إيه كان بيتطلع الفضل إلا على وجه المرأة السافر .. الحديث إللي رواه ابن أبي طلحة حديثه هو مش حديث ابن عباس .. وجايز ابن أبي طلحة ما قالش حاجة!

أظنه يهرب إلى مزيد من التشدد!

— هي المسألة قاصرة على النقاب بس!.. علماؤنا إللي فاهمين صحيح الدين بيذهبوا إلى أكثر من كده .. النووي وهو من شيوخ الشافعية الأجلء بيقول إنه لا يجوز أن يرى رجل امرأة ما.. ولاترى امرأة رجلاً ما. — أخطأ شيخكم .. والدليل واقعة وفد الأحباش إللي رواها أحمد بن حنبل عن عائشة وإللي بتفيد أن وفد الحبشة كانوا بيلعبوا عند رسول الله في يوم عيد .. عائشة قالت " فاطلعت من فوق عاتقه فطأطأ لي منكبيه ، فجعلت أنظر إليهم من فوق عاتقه حتى شبعت ثم انصرفت .. " ولو كان محرماً على النساء رؤية الرجال أو العكس لمنعها الرسول من مشاهدة الأحباش ..

— هذا حديث مردود عليه .. شيخنا النووي بيتقول إن عائشة كانت صغيرة لم تبلغ بعد .. طفلة .. عشان كده الرسول ما منعهاش ..

— كلام النووي هو المردود عليه .. ابن حجر تعقبه وذكر أن قدوم وفد الحبشة كان سنة ٧ للهجرة .. يعني بعد بناء الرسول بها بفترة طويلة.. كان عمرها في الوقت دا ١٦ سنة .. اسمع يا هشام .. كل الأئمة الأربعة اتفقوا على أن وجه المرأة مش عورة

— وأحمد بن حنبل مش من الأئمة الأربعة .. روايته..

أقاطعه مكابدة في هدوء:

– المنقول عنه رواية ضعيفة ما تنفكش حتى مع المقرر من مذهبه زي ما قال ابن قدامة الحنبلي .. ليه إنتم بتجروا ورا الضعيف من الروايات والمتشدد والشاذ ؟..

– ضعيف إيه وشاذ إيه يا دكتورة ..؟ ما هو إنت لو بتقري قرآنها تلاقى الآية واضحة .. بسم الله الرحمن الرحيم " قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم لأن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهم ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آباءهن أو أبناء بعولتهن " . ودا نص صريح على فرض النقاب على المرأة يا دكتورة ..

– بل العكس الآية بتقول غير كده .

قفز من مقعده وهو يصيح في انفعال:

– إيه يا دكتورة .. إنت هتفسري كلام الله على مزاجك ..؟!

سريعاً .. حاولت سحب أي بساط للفرار من تحت قدميه ..

– بهدوء يا هشام .. احنا بنتناقش وجايز كلامك هو الصح ..

– مش كلامي .. دا كلام الله " وليضربن بخمرهن على جيوبهن "

– والجيوب هي فتحة الجلباب من ناحية الصدر وما لهاش علاقة بالوجه ..

يبقى المطلوب من الست هو حجب الصدر والعنق مش الوجه .. ولو مش

مصندق المكتبة قدامك أهى فيها كل المعاجم .. دور براحتك على

معنى جيوبهن .. وبعدين لو كانت الآية تقصد تغطية الوجه ليه رينا

سبحانه وتعالى يأمرنا رجالة وستات بغض البصر ..! يعني إذا كانت

الست مغطية وشها يبقى إيه معنى إن الراجل بغض بصره وما يبحلقش

في وشها .. وبعدين الآية إللي بتقول " ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها

" .. إذا كانت الست مغطية بالكامل .. نقاب على الوش وقمازات في

الأيديين .. يبقى الزينة فين إلا في الوش والكفين ..!

– يعني إنت عاجبك المساخر اللي بتحصل في الشوارع ..! مش إنتم بتتشددوا بالمنطق والعقل .. المنطق والعقل يقولوا لازم عن النقاب .. يا بنت الناس أعداء الإسلام كثير ولأنهم عارفين قيمة المرأة في ديننا عاوزين يضربوه من خلالها وابعادها عن شرع الله .. وكانت الخطوة الأولى من خطوات الشيطان إللي نهانا ربنا عز وجل عنها هي كشف وجه المرأة .. الإسلام حرم الزنا وكشف الوجه ذريعة له .

"هل كشف وجهي وراء افتتانك بي واستحضارك لطيفي في مخدعك..؟ وأنا حين أفعلها .. أشكك بخيالي فارساً نبيلاً في مخدعي أمرجعه تهاون أولي الأمر في تطبيق ما تراه جمعية الشيخ هشام مسيح الدين الحظر الكامل ليس فقط الاختلاط بين النساء والرجال .. بل حتى مجرد الرؤية؟ لا هذا ولا ذاك .. بل هو الحرمان من الحب .. فإن كنت زانية .. فأظنه هشام وربما غالبية البشر المحرومون من الحب أيضاً زناه .. فلا أعتقد أن نوبات المتعة التي يفتعلها هشام ذاتياً وهو نائم بجواري لا يمكن أن تجري دون استحضاره امرأة أخرى .. إن لم يكن لها وجود في الواقع .. فخيال النصف الأسفل لهشام ليس بعاجز عن تشكيل أنثى مقرطة في فنتها ..! لا شيء فيها من زوجته زينب الحناوي"

هل أقتعته ..؟ ربما أثرت اضطرابه وحيرته .. لكنه بعد يومين لجدلنا ذلك .. فوجدت به يطلب من أم صابر الشغالة أن تساعدني في تفريغ حقيبة السيارة من كتب .. لم تكن كتباً .. بل نسخاً بالمئات من كتيب عنوانه "النقاب طريق المرأة المسلمة إلى الجنة" .. تصفحته ليدهمني بغرائب الأراء وأكثرها شذوذاً وكالها تندر النساء بعداب أليم إن لم يرتدين النقاب.. وليس أي نقاب .. بل هذا النقاب الذي وضع شروطه أحد شيوخهم في صحاري الربع الخالي كما وردت في الكتيب .. ومن وجهة نظر هذا الشيخ أن النقاب الذي يبين العينين والحواجب غير شرعي .. والنقاب الشرعي

أيضاً من شروطه ألا يكون ملفتاً وبدون تطريز ولا يكون ضيقاً .. ولونه أسود ..!!

وفي صباح اليوم التالي استقبل هشام عدداً من الشباب الصغير وزع عليهم أعداداً من الكتيب ويصدر تعليماته لهم .. من سيتوجه إلى بهوت ومن إلى نيروه ومن إلى طلخا ومن إلى بلقاس .. والستاموني والعديد من المدن والقرى المحيطة ..

وسمعه يقول لهم محذراً :

– أنا مش عاوز تقفوا وتوزعوا الكتيب بشكل مباشر .. إنتم بتوزعوا أشرطة الكاسيت إزاي؟

رد أحدهم:

– بنركب تكتك أو بيجو أو ميكروباص .. ولما بنلاقي السواق مشغل شريط أغنية بنديه الشريط إللي معانا ونستسمحه في تشغيله .. واحنا نازلين من العربية بنقوله خللي الشريط لك .

– في توزيع الكتيب خلوا المسألة غير مباشرة .. يعني وانت نازل سيب الكتيب مكانك وكانك ناسيه في العربية .. ممكن هيقع في إيد حد يشده عنوانه ويقراه .. أو يديه لأخته أو مراته .. فتقراه .. فتخاف من غضب ربنا وترتدي النقاب ..!

وها أنا يتعين علي ولو لمدة ساعة رضوخاً لمنطق الأنثى أن أتكفن في نقاب الشيخ هشام وجمعيته ..

أقتني زهرة بواحد من عند كوثر .. تلك هي الوسيلة الوحيدة لأواري
د. زينب الحناوي .. وهي تسبح في نهر دماء كبرياتها إلى مرفأ غريمتها ..
وكأنني لا أنتهي إلى المعصرة .. أتبع كوثر عبر دهااليزوسكك ضيقة
إلى مشارف البحر حيث يقبع بيت عروس زوجي المرتقبة .. أهي مؤامرة ..؟
أن أدنو من تلك الأرملة لأراها ..؟ بل فعل غريب يغيب تفسيره عن كل أنواع
المنطق إلا منطق واحد.. منطق الأنثى المجروحة .. دراسة أميركية أكدت
هذا.. المرأة السوية يمكن أن تتحول حتى إلى قاتلة إذا شعرت أن أنوثها
معرضة للخطر ..!

لم أربحراً .. بل ترعة بائسة تفصلها مشاية ضيقة عن عشش طينية
شديدة الانخفاض .. أين البحر الذي كان يروعا اتساعه ورهبة موجاته
الهادئة المناسبة في جلال ..؟ ألتك الترعة التعيسة أعماق سحيقة تستوطنها
الجنية التي خطفت خيرة شباب البلد في الزمن البعيد ..؟ بحث بخواطري
لكوثر ربما هروباً من برائن القلق داخلي فقالت ضاحكة:

– البحر ما صغرش يا دكتورة .. احنا إللي كبرنا ..!!

سالتها:

– تعرفيها منين؟

– ضرتك ..! كانت زميلتي في مدرسة التجارة الثانوية ..

ثم استطردت ضاحكة:

– وبعدين إنت نسيت ..؟ مش أنا وهي زي بعض .. بقر شايع .. ما نقدرش

نعيش من غير راجل!!

قالتها بدلال أنثى لا يخلو من السخرية .. فقلت مبتسمة:

– بس فيه فرق .. أهلك ناس مش متحضرين زي أهلها إللي شايفين إن

بنتهم إنسانة من حقها تجرب حظها ثاني وتبدأ حياتها من جديد ..

– بس أخويا سلامة إللي في الكويت مش زي أخواتي التانيين.. دا مخه متتور وبعث لي جواب قال أما ينزل أجازة هيخلص الموضوع.
في إحدى تلك العشش تقطن غريمتي .. ليست عشة تحديداً .. بل شيئاً أكبر من هذا .. ثمة غرفة فوق السطوح تعلوها أكوام القش.. كان موجوداً مثلها في منزل عائلة أبي القديم كما حكى لي أمي وكانوا يسمونها المقعد .. لأنها كانت استراحتهم في العصاري الصيفية؟ .. تبدو حوائطها الطينية جلية تحت ضوء مصباح كهربائي يتدلى من إحدى درجات سلم خشبي اتكأ على أحدها ..

أمسكت كوثر بمطرقة حديدية صداة تتدلى من الباب الخارجي وشرعت تطرق .. لنفاجأ بخريشة بين عيدان الغاب على ضفة البحر لتتفرج عن طفل صغير عار إلا من قميص داخلي يرفعه بيديه بغير حرص إلى أعلى بطنه .. يمرق من بيننا ليدفع الباب راكضاً إلى الداخل.. وبدا من راحته النفاذة أنه كان يتبرز بين عيدان الغاب.. وبعد لحظات ظهر شبح طفل ثان من خلف الباب ..

– مساء الخير

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

– الست زكية موجودة؟

– مين عايزها؟

– أنا صاحببتها كوثر ..

يختفي داخل الدار وهو ينادي:

– أماه .. أماه .. فيه واحدة اسمها كوثر عاوزاك ..

تكتم كوثر ضحكتها .. قلت في غيظ مكتوم:

– هتسمعي من ده كتير في بيتنا لما تيجي هي وعيالها .. أماه.. أبتاه ..

– وإننت هتوافقي إن هي تيجي تعيش معاكم ..!!

تباغتني بسؤالها .. لم أكن قد أعددت الإجابة الصارمة على هذا السؤال ..
ماذا لو استمر هشام في مشروعه هذا؟ وماذا لو أصر على احضارها إلى
البيت ..؟ كل طاقتي أوجهها الآن نحو هدف واحد .. ألا تتم تلك الزيجة ..
فماذا لو تمت!

– السلام عليكم ..

قصيرة .. ليس بما يعيبتها .. لكن قامتها ليست في شموخ قامتي .. نقطة
تحسب لي .. تقودنا إلى غرفة جانبية على يمين الصلاة ..

– انفضلوا ..

متسعة قليلاً .. لكنها محشورة بكنبات أربع من خشب الشجر .. فرشنت
بالكليم .. وعلى كل منها وسادة بالية طغت تقيحات العرق .. على ألوانها ..
يبدو أنهم يستخدمونها في استقبال الضيوف نهاراً والنوم ليلاً .. وثمة نافذة
متوسطة الحجم تطل على مشاية البحر .. وأخرى صغيرة .. تتم تيارات رائحة
الروث التي تلفحنا بها أنها تطل على الزريبة ..

تزيح النقاب عن وجهها .. تذكرني تقاطيعه الدقيقة بوجه الفنانة نجلاء
فتحي .. لكن بياضه تعرض لعملية شواء مزمنة بلظى شمس الحياة القاسية
فاكتسى بمسحة برونزية تفيض عليه بقدر عظيم من الإثارة .. هل رأها
هشام؟ ربما قبل أن تنتقب .. أعضاء الجمعية لم ينقبوا نساءهم إلا منذ أربع
أو خمس سنوات .. أظنها الآن في الخامسة والعشرين .. هذا عمر كوثر
كما أخبرتني .. وهما كانتا زميلتين في الثانوية التجارية .. ياه يا هشام
تتزوج بامرأة تصغرك بربع قرن ..! ومن يدري ربما كان هذا دافعك للزواج ..
شابة صغيرة .. وجهها شرك غواية وجسدها مكنوز بالحيوية ..

– ومين الست هانم؟

ارتجفت أوصالي رعباً .. وكأن سؤالها يطفح من شكوك تراودها بأنني
غريمتها الدكتوراة زينب الحناوي ...

تكشف كوثر وجهها وهي تجيب:

_ الأستاذة فوزية .. قريبتى من بهوت .. عندها قرشين وعاوزة تحطهم في جاموسة أو جاموستين.

_ يا أهلاً وسهلاً .. طيب ما تكشفى وشك واللا مستحبة مننا؟
قلت بصوت خافت:

_ احتراز .. ممكن حد يدخل من الرجالة ..

_ وهو لو فيه رجالة في البيت كنت أسيب نفسى كده .. ؟ أعمام العيال
ما يجوزش إنى انكشفي عليهم .. كلهم بره في الجامع .. طيب
أعملكو الشاي وبعدين نكمل كلامنا ..

انتابتنى نوبة فجائية من القزع .. أي شيء ها تتاوله هنا يمكن أن أتقياه
وأمعائى معاه ..

كأن كوثر تشعر بي .. ربما هي أيضاً من مشهد الطفل الفارق في برازه
وروائح الزربية انفلق جوفها أمام حتى شربة الماء ..
لكنها تصر .. وهي تغادر الغرفة يخترق النافذة الصغيرة صوته ..
باللكارثة .. هشام .. صوت ثان أستطيع أن أتبينه .. الشيخ صالح .. وأصوات
أخرى .. تتسمر خطواتها في منتصف الغرفة ..

_ الظاهر جايلنا ضيوف ..!

تحكم النقاب على وجهها .. ومثلها تفعل كوثر ..

_ عن أذنكو .. أشوف إيه الحكاية وراجعة تاني ..

تجذب الباب خلفها ..

هتفت في فزع ..

_ لازم نمشي يا كوثر ..

_ خايفة من جوزك ..؟

– مش عارفة .. جايز مش عاوزة أبان ضعيفة قدامه ..

همهمة أصوات تتسلل إلى الغرفة .. ينفرج الباب ثانية ..

– اتفضلوا.. حنقعد في الأوضة الثانية .

كوثر بغير اصرار..

– احنا لازم نمشي دلوقتي .. اخواتي هيزعقولي لو اتأخرت عن كده ..

في ارتباك:

– طيب لغاية ما تشربوا الشاي تبعناها إلى غرفة مجاورة .. لا توجد بها

مقاعد .. بل سرير ودولاب وتسريحة مشروخة مرآتها ..

– هارجعلكوا حالاً ..

هرعت إلى خارج الغرفة دون أن تتيح لنا أية فرصة للرد .. جلست كوثر

على السرير فجاورتها .. تتابني رغبة بأن أبقى لأرى ماذا يحدث؟ أراحمي

الحائط الطيني الذي يفصلنا عن غرفة الضيوف .. أصواتهم تصل إلينا في

يسر .. بدا الشيخ صالح الحديث:

– يا شيخ هشام .. إذا لم نراع تعاليم الدين فمن يراعيها ..؟ الأصل في

الإسلام تسهيل الأمور على العباد .. وفي حالتنا يرضينا مهر بسيط ..

ثم استطرد ضاحكاً:

– ريع جنيهه كما يقولون .. أما الوليمة .. فيكفينا أكلة فسيخ .. بس

يكون من نبروه .. الفسخانية هناك بيراعوا رينا في صنعتهم ..

تتغرس قهقهاتهم في مسامي أسنة مذلة ..

– والله كل إللي بتطلبه يا شيخ صالح لغاية دلوقتي مقدور عليه ..

يرد الشيخ صالح في شيء من الجد .

– المشكلة في الأولاد ..!

– اطمن يا شيخ صالح .. إذا كنت أنت خال الأولاد أنا هكون والدهم ..

ومش هفرق بين عائشة بنتي وأي واحد منهم.

_ أنت قلتلي إنك هتجهز شقة في البيت للأولاد وأمهم .. وده مش غريب

على رجل شديد الإيمان زيك يا شيخ هشام.

_ طيب وفيين المشكلة ؟..

_ الدكتوراه هتقبل الوضع ده؟ حتى زوجات الرسول عليه أفضل الصلاة

والسلام كن يغارن من بعض .. إزاي الدكتوراه هتتعامل مع الأولاد

خاصة وأن الله مارزقهاش ذكور .. من الجائز يكون في النفس شيء

من ناحية الأولاد وكمان أهمهم ..؟ صحيح إنت هتراعي ربنا وهتحاول

تعديل بين الدكتوراه وبين أختي إلا أن الدكتوراه في النهاية بنت

عمتك..

_ وعشان كده طول عمري حاططها في عيني ومش باحاول أزعلها .. ما

تتساش إنها ما لهاش اخوات رجالة وكمان لما أبوها الشيخ رضوان

مات الله يرحمه .. حسينا أنا وأبويا وأخويا عدلي أن عمتي وبناتها

مسئوليتنا .. وعشان كده لما عمتي عرضت علي الجواز من الدكتوراه

وافقت على طول ..

يا ليلة سودة .. ماذا أسمع ؟.. أمي عرضتني عليك يا هشام ..؟ أنا الدكتوراه

زينب الحناوي التي بنظرة تسيطر على مدرج محشور بألفي طالب ..!! أهذا

منظورك لعلاقتنا .. ابنة عمتك مكسورة الجناح فكنت لها جناحاً وليس

زوجاً حبيباً ..؟ وما الفرق بيني وبين تلك الأرملة ..؟ هي أيضاً تتزوجها لحماية

أطفالها من الضياع وهي من الفتنة ..

_ بس اطمئن يا شيخ صالح.. أختك وأولادها في عيني ..

لم أعد أطيق سماع المزيد ..

_ يا للا يا كوثر .. أنا مخنوفة ومش قادرة أقعد..

_ طيب استني لغاية ما زكية تيجي ..

– نادي عليها ..

بدت بدورها غير متحمسة لبقائنا ..

– طيب .. أنا هكلم زينهم عم العيال ومسافة يومين ثلاثة هيكون عندك

الرد بإذن الله ..

شهوة الفضول التي تتأجج بنزف كبريائي دفععتني إلى أن أنقب في كل حفرة بالقرية عن معلومة عنها .. كوثر التي زارتي بعد ذلك أكثر من مرة وزهرة كانتا خير عون في اشباع نهمي لكافة ما يتعلق بعريمتي .. تزوجت في الثامنة عشرة من أحد مشايخ الجمعية.. أفرغت له عائلته غرفة ليقيم فيها هو وعروسه في المنزل الذي زناه أنا وكوثر .. الغرفة لم تعد تكفي بعد أن أنجب ثلاثة أطفال .. يتنازع أشقاءه الأربعة وأمه ليحظى بغرفة أخرى لأطفاله .. ومما يعكس يثير الضحك بل الذهول .. ذهبت زكية مرة لزيارة أخيها صالح .. لكنها تأخرت إلى ما بعد العشاء .. وقف الزوج أمام البيت يترقب وصولها كاظمًا غيظه .. وحين رأى شبحها يلوح على مشاية البحر الضيقة ركض نحوها ليجذبها من ذراعها وهو يصيح غاضبًا – إيه إلهي أخرك للغاية دلوقتتي يا فاجرة !! فإذا بها تجذب ذراعها وتهرع نحو المنزل ليفاجأ بأخيه يتقض عليه وهو يصرخ: لو مديت إيدك على مراتي مرة ثانية هاقطعها لك !! لم تكن زوجته بل زوجة أخيه المنقبة أيضًا مثل زكية وكل النسوة في المنزل ..! يشارك الشيخ صالح في محل بقالة صغير .. وحين مات .. يسعى المتصارعون داخل المنزل إلى طرد زوجة أخيهم .. أين تذهب ..؟ لكن لا بد من رحيلها .. لم تعد قادرة على تحمل مكائد "سلايفها" داخل المنزل .. الشيخ صالح طالبها بالصبر .. لعل الله يجد لها مخرجًا .. لا يقدر على استضافتها في شقته الصغيرة .. لديه زوجتان وثلاثة أطفال .. ولدان من الأولى وطفلة من الثانية .. سمعته مرة يقول لهشام في منزلنا أنه اختص بغرفة وفي الوقت الذي تشاركه إحدى الزوجتين فراشه .. تلزم الثانية الغرفة الأخرى مع الأطفال الثلاثة .. أرهفت السمع في شوق إلى

صباح هشام وهو ينهره .. لكنني سمعته يسأله ضاحكًا:

_ طيب لو حسيت إنك عاوز الاتنين في نفس الليلة؟

فقال الشيخ صالح بجدية:

_ بيحصل .. لما أفرغ من الأولى تروح وتبعث الثانية وعلق شيخ آخر لا

أعرف من يكون وهو يتهد:

_ والله تلك ميزة المشى .. إن مرضت واحدة أو كانت حائضًا فالأخرى

حاضرة ..

فسأل الشيخ هشام:

_ ولوتصادف أن مرضت الاثنتان..

فرد الشيخ صالح:

_ هنا تظهر ميزة الثلاث .. هناك أيضًا الأربع .. بس فين المال ..!!

فقال الشيخ الذي لا أعرفه ..

_ لهذا يا أخوان لازم نركز في الدعوة على تسهيل أمور الزواج.. المهر

ولو بآية من القرآن الكريم .. والتبسيط في الأثاث والسكن .. هذا

يسهل للرجال أنهم يسيروا على سنة نبينا الكريم فيعبدون .. مشى

وثلاث وحتى رباغ .. بكده مش هتكون بيننا عانس بإذن الله ..

وتساءل أحدهم في قلق:

_ والجماعة في شربين هيسيبونا على حريتنا ننشر الدعوة دي بين

الناس!

فرد الشيخ صالح:

_ الدولة اتفاقتها غير المكتوب معنا نقول إللي عاوزين نقوله للناس ..

بس مالناش دعوة بالعائلة المالكة ..

قال أحدهم ضاحكًا:

– الأب والأم والابن..!

لم يشاركهم هشام الضحك .. بل علق في قلق:

– الناس بدأت تتكلم عن علاقتنا بشربين .. وشايفين إننا عملاء
للمباحث ..

أظنه كان يقصدني ..؟ ما زال يتذكر اتهامي له بأنه يعمل مرشداً
للمباحث ..؟

رد الشيخ صالح في لؤم:

– والله لو دي فكرة الناس عن الجمعية وفروعها في كل مصر يبقى
احنا نجحنا في خداع الحكومة نفسها ..!!

زوجتا الشيخ صالح – كما أخبرتني كوثر – ينتميان إلى قاع القرية ..
إحدهما دفع بها والدها العريجي إلى العمل في البيوت من صغرها والثانية
ابنة فلاح أجير تزوج على أمها وتركها وشقيقتين بدون عائل .. يسوق الشيخ
صالح تجربته بالزواج من الفتاتين كعمل إسلامي يتفق مع سنة النبي صلى
الله عليه وسلم .. إنقاذ فتاتين من الضياع بالزواج بهما ..!! ولا شيء عن
ممارساته الحيوانية معها .. يفرغ من واحدة ليستدعي الأخرى .. أتبدو وجهة
نظر (أدونيس) في كتابه الثابت والمتحول صحيحة .. أن الإسلام ينظر إلى
النساء .. كنساء وليس كـ "نادية" بذاتها وسميرة بتكوينها الخاص ..؟ ولأن
إحدى نقائسنا أننا نحض فينبغي أن تكون هناك ثانية وثالثة احتياطي ..؟..
أود أن أقتحم عليه الغرفة لأصبح في وجهه أن الرسول ارتبط بالسيدة خديجة
لأنها خديجة التي صدقته وأعانته وعانت معه .. أحبها لأنها خديجة وليست
فقط امرأة طيبة يمكن استبدالها بأخرى حتى لو كانت أيضاً طيبة .. وبلغ
به وفاءه أنه ما أشرك معها ثانية .. أود أن أصرخ في وجه الشيخ صالح أنه
ليس من حق أو في طاقة أي من زوجتيه أن تفضب ..

إن غضبت وأفرطت في غضبها وطلبت الطلاق .. أين تذهب ..؟ من أين
تقتات ..؟ أليس هذا أقل قسوة .. أمة تحت قدميه تكنس وتغسل وتطبخ

وتتلقى افرازات عمق ذكوره ليلاً طبقاً للجدول المعد في مقابل مأوى
ووجبتني طعام كل يوم وكسوتين كل عام .. أهذا هو الإسلام يا شيخ
صالح ..!

.. وأخيراً نطق هشام ..

– بس إنت يا شيخ صالح بتبالغ في تطبيق السنة الشريفة لما تأمر أولادك
أن ينادوك أبناهم وأمههم أمه ..

رد الشيخ صالح ساخراً :

– بل أنت أيها الشيخ التايواني إللي فرض في السنة لما بتسمح لابنتك
بمناداتكم بابا وماما ..!

ويبدو أن عبارة الشيخ التايواني رافتهم فأنطلقت قهقهاتهم .. إلا أن الشيخ
التايواني والشيخ الحجازي اتفقا أخيراً .. إن كانت شقة الشيخ صالح ليس
بها متسع لأخته الأرملة ففي بيت الشيخ التايواني متسع ..!!

داهمته:

.. طلقني يا هشام ..

.. يستميت ليفلت بفعلته الشنعاء .. يصرخ:

.. مسلمة.. وتعارضني شرع الله ..

.. مثنى وثلاث ورباع .. مش هو ده الشرع إللي تقصده .. ولو قرئت الأثر
كويس هتلاقني من السلف إللي إنتم بتقدسوهم ناس ما بيشتبعوش
من أربعة ففسروا مثنى وثلاث ورباع يعني تسعا .. سنة عن الرسول ..
واحد من شيوخك بيقول كده على موقعه .. وعنده البرهان: لو كان
رينا بيقصد أربعة بس لاستخدم أو .. مثنى أو ثلاث أو رباع .. مش مثنى
وثلاث ورباع .. هو دا الدين عندكم! الستات بقدر تربط على الطوالة ..
ليسحب التور منها ما يشاء في أي وقت عشان يتقياً بداخلها عقده ..
دا مش شرع الله يا شيخ هشام.. دا شرعكم أنتم .

.. لو كنت مسلمة حسنة الإسلام لساعدتيني على رعاية أرملة مسلمة
وأولادها ..

جاوبني بصراحة لو كانت زكية دي عمرها ٤٠ ولا ٥٠ سنة كنت
هتجوزها علشان ترعاها وأولادها!
طبعاً طالما ديننا بيعشنا على كده ..

طيب .. لو كان الأمر كده .. مسألة دين ورعاية أنا مستعدة .. ادفع لهم
أي مبلغ من المال شهرياً .. هو دا التكافل إللي حثنا عليه الإسلام ..

.. وهو التكافل بالمال بس ..!! لو كانت مسألة مال ماكانش الرسول
تزوج من سودة مثلاً ..!! زكية دي أرملة شابة إزاي نجميها من الفتنة
إلا بالجواز ..!؟

وددت أن أصرخ في وجهه: وهل مثلك قادر على حمايتها من الفتنة .. وأنت

لم تستطع حمايتي .. تحتك وأحلم بغيرك .. ولولا أخلاقي وتربيتي لذهبت
إلى ما هو أكثر من الأحلام!!

صحت:

_ وليه أنت ..!! الجمعية فيها أعضاء غير متجوزين .. ليه أنت يا هشام؟
بتضحى بي وبسعادة بنتك عشان رئاسة الجمعية ..؟

_ إخرسي يا كافرة!

تمتت بهدوء:

_ دا سبب كافي لطلاقي .. أنا زي ما قلت كافرة .. طبعاً لا يليق بشيخ
جمعية أحياء رسول الله أن يكون زوجاً لكافرة ...
_ والله ما هتنا إليها أبداً .. موتك أهون علي من طلاقك!

هجرت المنزل .. عدت إلى منزل أمي التي لطمت الخدود .. كان يخشى
من مواجهتها .. فاكتمت بارسال عدلي وزهرة .. حاول عدلي أن يفريني بما
يراه حلاً يرضي جميع الأطراف ..

_ ارجعي يا دكتورة لبيتك .. هو هيفضل مقيم معاك .. ويمر عليها مرة
أو مرتين كل اسبوع ..

رفضت بأصرار .. عاونتني أمي وأختي فاطمة التي حين علمت بالأمر
جاءت لتنفث غضبها .. كل النساء حولي ينفثن نار الغضب .. وزهرة ما جاء
ابلاغها لي إلا نضح شتات مشاعر الرعب داخلها .. ألسنة الغضب دواخلهن
وقودها مشاعر خفية بالخوف من أن يكون هذا مصيرهن .. قالت فاطمة
بغليظ:

_ همه كده المشايخ .. مالهمش أمان ..

ثم وجهت حديثها لأمي:

_ يعني ما لقتيش غير شيخ تجوزيها ليه يامه!!

فقالت أمي:

.. ما كانش لسه بقى شيخ .. مش عارفة إيه إللي غيره كده ..!!

لكنها أخيراً تخنع:

.. وماله يا بنتي .. كتير متجوزين اتنين وعاشين كويس ..

صحت في هلع:

.. حتى إنت يا أمي ..!

.. هو قال لو الدكتور مش عاوزاها في البيت .. هياخدلها بيت في أي

مكان ثاني في البلد ..

في اصرار:

.. ما فيش غير الطلاق يا أمي:

أخيراً رضخ .. هل تعرف لماذا ؟.. هذا ما أخبرني به عدلي وهو حزين..

الشيخ صالح وجماعته بيلعبوا بعقله .. هذا تعبير عدلي وليس تعبيرى ..

ساندوه إلى أن فاز برئاسة فرع الجمعية في المركز وأصبح الشيخ صالح

رئيساً لفرع المعصرة .. وثمة وعود بأن يواصلوا سعيهم ليرأس هشام جمعية

المحافظة .. لهذا كانت زيارته للقاهرة منذ عدة أسابيع..! لم تطق حقيقياً

سيارته ما حشر بها من أرز وحمام ويطا ودجاج أمضت زهرة وأخريات ينظفنها

ليلة كاملة .. فاستأجر سيارة بيجو .. أ تلك خطة الشيخ هشام ليكون رئيساً

لجمعية المحافظة .. ذبح عشرات الطيور وأنا ..! لكن يحسب له حرصه

على حضور لحظة الذبح ليتأكد أن زهرة قامت بالمهمة طبقاً للشريعة

الإسلامية..!!

يطلب ابنتي شادن .. أظنها نصائحهم له .. حمل عدلي إلي تلك الرسالة..

قال إنه يريد أن يربيهما تربية إسلامية.. روعني ما يطلب.. هل أترك ابنتي

لتتولى تربيتها تلك الجاهلة .. لتخفق طقولاتها بنقابها الزائف ..!

رفضت وقررت بابنتي إلى المنصورة وألحقها بإحدى مدارسها الخاصة..

غيرت رقم هاتفي المحمول بعد تلقي سيل من التهديدات من هواتف عامة

ينكر هشام معرفته بمصادرها حين هاتفته عدلي وشكوت له .. لكنه
فاجأني في الكلية مهدداً ومتوعداً إن لم أسلمه شادن .. وبعد زيارته تلك
بعده أيام استدعاني عميد الكلية ليبشرنى بأن الطريق أصبح ممهداً أمامي
لرئاسة القسم .. قلت له إن هناك من هو أجدر مني .. فهز رأسه مؤيداً
وقال:

– الدكتور أحمد المعداوي .. من يومين جالته عقد من جامعة الكويت
وهيسافر قريب.

وفي نهاية حديثه باغتني:

طبعاً أنت عارفة أن رئاسة القسم محتاجة لموافقة الجهات الأمنية ..
علشان كده أنا شايف إنك تحلي مشاكلك مع طليقتك الشيخ هشام ..
الأساتذة وحتى الطلبة بيحكوا عن الخناقة اللي حصلت بينكم من كام
يوم .. أظن بسبب بنتكم عيشة .. طيب وليه لازمتها الشوشرة دي لأديله البنت
واتفرغي لمستقبلك العلمي .. وما تنسيش رئاسة القسم هتقربك خطوات من
العمادة .. وبعدين الشيخ هشام ما عندوش مانع أنه يرجعك لذمته .. والبنت
تتربى وسطيكوا .. وحتى لو أصريت على موقفك هو مش هيمنع البنت إنها
تتضني آخر الأسبوع معاك!

كنت أتابعه في صمت .. لكن داخلي يضج بصخب الذهول .. هل أصبح
هشام يمثل هذا القدر من الأهمية إلى الحد الذي يدفع مباحث أمن الدولة
لتكليف عميد الكلية بالتدخل واغرائي برئاسة القسم في مقابل التنازل
عن ابنتي!

أعرف أنه أصبح رئيس فرع جمعية أحياء الرسول في الدقهلية .. لكن
أهذا يكفي ليكون محاطاً بتلك الرعاية الخاصة من قبل الجهات الأمنية؟
أم أنهم يستعدون للانقضاض على جماعة الأخوان المسلمين في المحافظة
التي أصبحت أحد أكبر معاقلهم في مصر ويرون في الشيخ هشام وجماعته
خير عون في حريهم تلك؟

ألا تلاحظ .. لاشيء كثيراً في أوراقى السابقة عن ابنتى شادن .. أمر يثير الدهشة في مجتمع تتزوج فيه النساء فقط، ليكن أمهات .. وتصبح سيرة المرأة الذاتية هي سيرة أمومتها .. كما قلت أنت في إحدى ندواتك .. وما قلته صحيح إلى حد كبير .. ولا أخفي أنني مثلهن .. الأمومة في مخدعي كانت هدفاً .. لكن دون أن تلمس هدفاً آخر لا يقل قداسة .. أن أكون أنثى .. ولأنني لم أكن تحت سقف الزوجية الأنثى التي تحلق فوق أجنحة ألفها في العلياء .. بل كانت الأنثى بداخلي منذ ارتباطي بهشام موجوعة .. لذا لم أجد حبراً آخر سوى تلك الأوجاع لأغمس فيه قلمي وأكتب!

أظن أن تلك الأعاصير المحمومة من الأحداث التي تزلزلني فاجأتك ..
لكن في تلك اللحظة أشعر بأنني أقوى رغم موار القلق الذي يجتاحني
بعد حديث عميد الكلية .. ولا أنكر أنني في البدء اهتزرت .. كيف لي
أن أعيش بدون رجل ..؟ الآن أدرك أن مخاوفي كانت أوهاماً تتشكل من
تراثا القاتل .. ظل رجل ولا ظل حائط .. كنت في فراشه كبيانو في بيت
تركي .. قطعة حتمية من جهاز عش الزوجية .. لكنها فقط مجرد ديكور
لا تستخدم أبداً ..!!

ولماذا أعيش بدون رجل؟ ألا تراني قد تحررت من هشام .. فهل تقبلني
زوجة لك ..؟ " إن كان الله قد اختص الجميلات بأن أجرى في عروقهن غسل
النحل .. فلقد اصطفاك بأن أجرى في عروقك غذاء الملكات " .. ألسنت
_ وهذا تشخيصك لي _ جديرة بأن أكون زوجة لك؟! ودعني أذكرك
برسالتك التي وردت بها عبارتك تلك:

" رغم أنفك وأنف هذا القلب الدلوعة النائم في وداعة تحت ضلوعك
سأظل أحبك .. ولدي أمل أن يستيقظ ذات يوم رافعاً رايته البيضاء .. ساعتها
سأمنحك مهذاً دافئاً في قلبي لتهمعي فيه إلى الأبد .. وإلى أن تأتي ساعة
الظفر لن أياس .. لأنني أراني يقيناً داخلك .. إلفك الذي أمضيت سنوات ما
قبل زواجك تبخثين عنه .. بل ومنذ كنت جنيناً يتكور داخل رحم أمك ..
لن أستسلم لعنادك الطفولي الغبي وسأظل أدك حصونك حتى تنهار .. ليس
غروراً أن قلت لك أن يوماً ما سأنتصر في تلك الحرب الشرسة .. بل فهماً
للحقيقة .. حقيقتي .. أنني الرجل الوحيد في هذا العالم الجدير بحبك ..
بدفء روحك .. حنان أناملك .. وحقيقتك سيدتي .. ترتبط بأعجازه سبحانه
وتعالى في الخلق .. فإن كان قد اختص الجميلات بأن أجرى في عروقهن
غسل النحل .. فلقد اصطفاك بأن أجرى في عروقك غذاء الملكات .. ذلك
اليقين هل رأه رجل آخر غيري ..؟ يقيناً لا .. لهذا .. غباء منك ألا تستسلمي

وغباء مني أن أياس ..

.. وها أنا استسلم .. فماذا أنت فاعل ؟..

لن تفكر .. ربما كان هذا قرارك منذ البدء .. أرووق لك فقط المرأة الأخرى .. فريسة تسوقها إلى شمتك الصغيرة في المنصورة .. تبعث الحياة في جينات مراهقتك .. لذة المغامرة .. استغلال المجتمع .. زوجة بمآذون واشهار لا لذة فيها .. زوجة مؤرقة رأسها بأسئلة الوجود والمؤرخين الجدد والبنوية لا مآرب لك فيها زوجة .. بل عشيقة .. وإلا لماذا طلبت من زوجتك أن تستقيل من عملها وتلزم البيت ولا تشغل نفسها إلا بأمورك وأبنائك الثلاثة ؟! لكنك لم تسألني: هل أقبل بك زوجاً ؟! إجابتي أيضاً بدون تردد: لا صارمة ..!! وما الفرق بيني إذن وتلك الأرملة الشابة التي خطفتم رجلاً من زوجته!!

.. وإياك أن تظن أنني الآن صيداً سهلاً .. فتشككني في خيالك " بقرة شايعة " .. أعرف أن جسدي يمور بالرغبات التي بحث لك في رسالتي تلك بشيء منها .. لكن هذا أمر طبيعي .. إنتي في النهاية أنثى .. لكن ما غاب عنك دائماً وأوجعني أنتي أنثى مكتملة .. لذا يأبى هذا الجسد حتى لو كان أتونا من الرغبات أن يمنح مفاتيحه لقناص يتفاضى عن كل ممالك د. زينب الحناوي من رأس تستعر بشهوة المعرفة ووجدان يتأجج بشهوة الإبداع فلا يرى فيها سوى شهوة الجسد .. لذا .. لا أفرط في المبالغة يا أستاذي إن قلت أنني الآن .. في رحاب مملكتي بشمتي الصغيرة والمجهولة لك وللشيخ هشام وجماعته السلفية استمدت من حريتي .. استقلاليتي .. قوة في مواجهتكم .. ما شعرت بها من قبل!

ومع ذلك يمور داخلي الآن برغبة غامضة .. لا أدري لها تفسيراً .. أن أختتم رسالتي هذه بتلك الكلمة التي تقمت أن تسمعها مني لأكثر من خمسة عشر عاماً:

أحبك ..!!

د. زينب الحناوي

المنصورة ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٩

وجد هذا الدفتر ملقى ضمن أوراق أخرى في شارع لاطوغلي بالقاهرة عقب اقتحام متظاهرين مبنى مباحث أمن الدولة يوم الأحد الموافق ٦ مارس ٢٠١١ . . ومما يذكر أن الدكتورة زينب رضوان الحناوي أستاذة الأدب الإنجليزي بجامعة المنصورة كان قد عثر على جثتها يوم ٥ أكتوبر ٢٠٠٩ في مطبخ شقتها بعد تلقي قسم أول المنصورة بلاغات من الجيران عن سماع صرخات استغاثة من داخل الشقة . . وتبين من التحقيقات أنها قتلت طعنا بسكين . . وقيدت القضية ضد مجهول كما ذكرت الصحف حين ذلك .

محمد القصبي